عباس محمود العقاد

# يوميّات

# ١



# كلمة فى العنوان

تضم هذه المجموعة محصول أكثر من عشر سنوات من التعليقات التى نشرت تحت عنوان اليوميات بصحيفة «الأخبار» اليومية ، ومعها تعليقات فصول أخرى نشرت فى هذه الصحيفة وفى غيرها من الصحف أو المجلات بمختلف العناوين .

وتتسم الكتابات التى احتوتها هذه المجموعة بالسمات التى يدل عليها عنوانها : اليوميات والصحفيات : وهى امتداد المجال ، وتجدد المناسبات ، وسهولة التناول ، وسرعة المساجلة فى حينها بين النقد والرد ، أو بين السؤال والجواب .

ولا يفهم من عنوان اليوميات أنها بنت يومها أو بنت ساعتها ، إنما يفهم منه أن مناسباتها العارضة قد تكون بنت يومها - بل بنت ساعتها ولحظتها - ولكنها مجرد مناسبات عارضة للكلام فى موضوع غير عارض ، أو غير موقوت بزمن من الأزمان فى معظم الأحيان .

وقد تيسر تقسيم بعضها حسب موضوعاته الشاملة ، ولكنها فى جملتها تتأبى على التقسيم والتوزيع ، لأن الاستطراد الذى لا مناص منه فى الموضوعات المتنقلة كثيراً ما يجمع فى اليومية الواحدة كلاماً يصلح لإلحاقه بباب العقائد والمذاهب كما يصلح لإلحاقه بباب التراجم والشخصيات ، مع التطرق من هنا وهناك إلى مسائل الاجتماع والأخلاق أو مسائل الآداب والفنون ، وقد يغنى عن حصرها فى الأبواب المحدودة أن تتبع فى ختام الكتاب بفهرس للأعلام والمباحث يدل على مواضعها من الصفحات ، ولا حاجة معه إلى مراعاة التسلسل فى ترتيب الأيام .

على أن المجموعة كلها قد تلحق بباب واحد من أبواب التأليف القديم والحديث ، بل هو الأصل فى كلمة التأليف التى تعنى جمع الشوارد ونقلها من الوحشة المتباعدة إلى الألفة المتقاربة . ثم انتقل هذا الباب فى العصر الحديث بعنوان واسع يسلك فيه أشتات الرسائل والمذكرات واليوميات الخاصة أو اليوميات العامة ، منها هذه اليوميات التى كتبت من قبل ، وجمعت اليوم ، بإذن واقتراح من أصدقائنا القراء .

**عباس محمود العقاد**

# الأدباء بين جيل وجيل*

## من جيل إلى جيل

كم يبقى من حقائق التاريخ من جيل إلى جيل ؟

بل كم يبقى من حقائقه فى الجيل الواحد ، بين المعلوم والمجهول ، وبين المألوف والمستغرب ، وبين حسن النية ، والنية التى تسوء وتسىء ثم تصر على السوء والإساءة ؟

قصارانا بعد كل مقال وكل سكوت أن نقول : ويل من التاريخ ما أظلمه ! أو نقول ويل للتاريخ ما أثقل الظلم عليه !

جاءتنى بعد مقال الأسبوع الماضى رسائل مختلفة سيطلع القارئ عليها وعلى تعقيباتها ، ثم يرى فيها مصداقاً جديداً لاعتقاد المعتقدين أن تمحيص التاريخ فى أصغر المسائل من أصعب الصعاب ، ودع عنك مسائله الكبار .

* * *

## الأدباء والسياسة السرية

إحدى تلك الرسائل رسالة ذات شعبتين من طالب جامعى ، يستغرب فى أولاهما ما ذكرناه عن علاقة أدباء الجيل الماضى بالسياسة السرية وعن مبلغ شأنها فى تقدير أعمال الجيل كله ويسألنا : لمَ لمْ يُكتب عنها شىء حتى الآن ما دامت بتلك الأهمية ؟ ولم لا نكتب نحن ما نعلمه عنها ؟

والذى يستغربه الطالب الجامعى كان هو المألوف والشائع بين الأدباء النابهين فى ذلك الجيل ، فلم يكن فيه أديب واحد لا يتصل بقصر عابدين أو قصر الدوبارة فى القاهرة أو بقصر يلدز والمابين فى الأستانة ، ولم يشذ عن هذه القاعدة من طبقته وجيله غير حافظ إبراهيم لأنه لم يكن من ذوى الجلد على الأسرار والمناورات .

على أن حافظًا نفسه قد أدخلته تلك المناورات فى حبائلها على غير مشيئة منه ، فسعى بعضهم فى تزويده بقلب شاعر الخلافة من قِبَل السلطان عبد الحميد

* أخبار اليوم : ١٩٥٣/١٢/٥ .



الثانى ، وقامت القيامة هنا حتى احتال من يعنيهم الأمر على حرمانه من اللقب المنتظر ، ودسوا عليه من يغريه بهجاء السيد «أبى الهدى الصيادى» نديم عبدالحميد . . فانقطع الرجاء فى تلقيبه بذلك اللقب الفخم الذى يتضاءل عنده لقب شاعر الأمير .

ولا يستصغرن الطالب الجامعى خطر تلك المناورات التى طالما اشترك فيها أصحاب الأقلام من الأدباء والصحفيين ، فالحق أن تاريخ الجيل كله يتوقف على الإلمام بها ، ولسنا نعرف شهرة واحدة لا يتغير تقدير الناس لها إذا انكشف الستار عن تلك الأسرار ، ومنها شهرة أناس يحسبون فى الطليعة بين أبطال الوطنية وتهبط بهم علاقاتهم تلك إلى ما دون أقدارهم المزعومة بكثير .

أما أن المؤرخين المعاصرين لم يكتبوا شيئاً عنها مع أهميتها فسببه واضح : وهو أنها أسرار يعنى أصحاب الدولة القائمة يومئذ بكتمانها .

وأما إننا نحن نكتب عنها فذلك ما ننويه ولا نحجم عنه كلما عرضت لنا مناسبة من مناسباته .

والشعبة الثانية من سؤال الطالب الجامعى عن معنى قول السيد البكرى للخديو عباس الثانى إننى وزير مثلك ؟

ونحن نحيل الطالب على تاريخ تلك الفترة . ويكفى فى هذا السياق أن نذكر له أن خديو مصر كان معدوداً من وزراء السلطان العثمانى فى الآستانة ، وأنهم كانوا إلى عهد الخديو عباس يقعون فى مشكلة من مشكلات المراسم كلما اتفق وجوده فى الآستانة يوماً من أيام الأعياد . فيحار رئيس الديوان المابينى فى وضعه قبل الصدر الأعظم رئيس الوزراء أو بعده فى مراتب التشريفات .

* * *

## ونحن فيها

نعم ونحن فيها ، والضمير عائد على كل مسألة تتعلق بتصحيح التاريخ فى الأدب أو السياسة ، وفى الحاضر أو الماضى ، وهى هنا تتعلق بنسبة بيتين من الزجل إلى قائل غير متفق عليه رويت فى الأسبوع الماضى نادرة لحفنى ناصف مع حمد الباسل حين زارهم على غير موعد فحضرهم فى وليمة وقال حمد بيتين من الزجل فرد عليه حفنى مشيراً إلى طربوشه المغربى وهو يقول : «معلوم أدباتى !» .

يقول الأديب مصطفى الصباحى تعليقاً على هذه النادرة فى خطاب أرسله إلىَّ :

. . . إن حمد الباسل باشا حين وجه إلى حفنى بك هذا الكلام إنما كان متمثلا به ولم يكن هو منشئه . . .» . .

قال : «ولهذا قصة طويلة خلاصتها أن محمود باشا شكرى كان رئيساً لمحكمة طنطا وأولم وليمة لقضاة محكمته دعا إليها حفنى بك – وكان يومئذ قاضياً لمحكمة طهطا . وكان اجتماع المدعوين فى منظرة مجاورة للباب الكبير بمنزل الباشا ، فلما صعدوا إلى غرفة الطعام دخل أحد اللصوص يسرق عصيهم ومظلاتهم وعباءاتهم ، ولما عرفوا أمر السرقة أبلغوا البوليس وصادف أن كان البوليس قد ضبط السارق يعرض ما سرق للبيع ومنه عصا عليها اسم حفنى بك فردت المسروقات إلى أصحابها» .

«ثم عرف هذه القصة محمد باشا صدقى وكان يشغل وظيفة مأمور تفاليس وكان صديقاً لحفنى بك وبينهما مساجلات زجلية غاية فى الظرف والطرافة ويوقع أزجاله هكذا : «محمد صدقى زجال جلالة حفنى ناصف خان» . . وقد بعث إلى حفنى بك لهذه المناسبة زجلا طويلا لا أذكره كله جاء فيه هذان البيتان اللذان تمثل بهما حمد باشا وأشار فيه إلى اجتماع قضاة محاكم طنطا وطهطا والسنطة فقال :

جمع محاكم حرف الطاء طنطا وطهطا والسنطة

ورد عليه حفنى بك بزجل بارع تجلت فيه الفكاهة على مذهبه الظريف بقوله :

منى لسيد الزجاله — ألفين سلام فوقهم بوسه
مالوش نظير فى الرجاله — يخلق من «الهاب يك» دوسه

إلى أن قال :

كانون سعادتكم زرع — والتلج فوقه للسره
مفيش نفر واحد يطلع — يقول أكل عندك مره

إلى آخر ما قالا . وإنى لأرجو أن أعثر على هاتين الطرفتين فأتشرف بوافاتك بهما . .» .

هذا هو فحوى رسالة الأستاذ الصباحى ، وإنى مع شكرى على تعليقه أرجح أن هناك مناسبتين مختلفتين ، وأن البيتين كما رواهما حمد الباسل رحمه الله أقرب إلى موضع الاستشهاد ، لأن هذه الرواية تفسر لنا وصول حفنى على غير موعد كما تفسر لنا تعريضه بالأدباتى فى رده على حمد . .



وأقل ما فى المناسبة كلها أنها مثال للاختلاف على الروايات والأسانيد الأدبية فى مدى جيل أو جيلين .

## سحاب من عباب

أما صاحب الخطاب الذى وقعه بإمضاء «م . سلامة» فجوابى الموجز على سؤاله الأول أننى لا أحفظ الكثير من نوادر حفنى لأننى كنت أتلقى أخباره على السماع ومما سمعته غير ما ذكرته فى مقال الأسبوع الماضى يبدو لنا تنوع المناسبات وتعدد مصادرها .

فقد سمعت من أديب قنائى إحدى هذه النوادر الكثيرة ، وكان حفنى قد انتقل إليها قاضياً كما جاء فى قصيدته المشهورة :

قالوا نقلت إلى قنا — يا مرحبا بقنا وإسنا

حدثنى الأديب القنائى قال : إن القاضى الشاعر كان مقبلا على ديوان المحكمة يوماً فاعترضه صاحب قضية من الفلاحين الذين يتربصون على أبواب المحاكم بكل قادم فى زى الأفندية ويحسبونه قادرا على التوسط لهم فى أمر من أمورهم عند الكتاب والمحضرين فما هو إلا أن بصر بحفنى بك داخلا حتى هرول إليه قائلا :

أنا لى دعوى . .

فأجابه حفنى وهو يهرول مثله ما استطاع «وأنا ماليش دعوى» !

وحدثنى أحد أبنائه أن أباه ضربه وهو صغير فخرج يعدو إلى الشارع ونادى له بأول شرطى ، فلما خرج حفنى للشرطى وهو يدق الباب دقاً شديداً سأله ما الخبر ؟

قال : الخبر يا سعادة البك أن هذا الولد جاءنى وهو يبكى وقال لى إن فى هذا البيت رجلا كبيراً ضربه واختفى .

فأجابه حفنى كالمتهم المنكر : لا والله يا سعادة الجاويش . . «هو اللى ضربنى وجرى . .» .

وحدثنى أديب قاهرى أن جماعة تبادلوا الرأى فى فن الإلقاء أمام حفنى وتحمس أحدهم للفن الجديد فاقترح أن يستعين به حفاظ القرآن الكريم فى تلاوته حسب المعنى .

وسأله حفنى : كيف يكون تطبيقه فى التلاوة ؟

قال الأديب المتحمس للفن : بتصوير المعنى وتمثيله !

قال حفنى : إذن ترينا أنت مثالا لذلك فى قوله تعالى : « . . وراودته التى هو

في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك . .»

وسمعت عن الشيخ عبد العزيز البشرى رحمه الله نادرة تروى له مع الفريق إبراهيم فتحى حيث قال له الفريق : قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار ، فذكره البشرى بقوله تعالى :

«فريق فى الجنة وفريق فى السعير».

سألت البشرى عن هذه القصة فلم يثبتها ولم ينكرها ، ولكنه استطرد منها قائلا : إن حفنى ناصف هو السابق إلى جواب من هذا الباب . . وقال له بعضهم قاض فى الجنة وقاضيان فى النار ، فقال : «والناصف هو الذى فى الجنة !» .

وكانت هذه النكتة فى المجمع اللغوى مثاراً للخلاف على فعل «نصف» الثلاثى وفعل «أنصف» الرباعى هل يتقاربان فى المعنى ؟ فتبين أن اللغوى العتيق رحمه الله لم يكن بعيداً من الصواب .

ومن نكاته التى تشق طريقها فى مقام الحداد أنه سئل تاريخاً شعرياً يكتب على قبر عريان بك فنظم هذين البيتين :

لقد هوى فى أفق هذا المكان ... بدر العلا عريان فخر الزمان

ومذ أتى الجنات أرخته ... «عريان أضحى فى ثياب الحنان»

١٨٨٨

إن هذه النوادر لا تضيف محصولا كبيراً إلى الذخيرة الحفنية إذ تيسر جمعها من مختلف مصادرها . ولكنها قد تشير بتعدد مناسباتها من عباب .

أما جواب السؤال الأخير من الرسالة – وهو تعليل ملكة الفكاهة عند حفنى ونظرائه – فهو شرح يطول – وخلاصته فى كلمات أنها ملكة لا غنى فيها عن الذكاء وعن المزاج ، وأنها تنمو بالإضافة إلى ذلك مع مفارقات الحياة ، لأن النكتة فى جوهرها إنما هى التفات إلى المفارقات .

ولقد كانت حياة حفنى كلها مفارقة تنتهى إلى مفارقة أعجب منها ، هل يعلم القارئ مثلا أن حفنى ناصف كان فى أول عهده بالتدريس معلماً للخرس والبكم والعميان ؟ أما إنه بدأ سيرته من رجال الشريعة وختمها بين القضاء الأهلى وأساتذة الجامعة فهو معلوم . .



# من أسرار التاريخ والأدب*

## الكتاب الأسود

أما قضية الكتاب الأسود فقد كان الباعث عليها تمثيل رواية «شلومة» التى مثلت فى باريس وبرلين قبل أن تمثل فى البلاد الإنجليزية ، وكان تمثيلها محظوراً على المسارح العامة فمثلتها جماعة المسرح المخصوص وقصرت حضورها على المشتركين فى الجماعة .

وهنا انبرى بمبرتون Pemberton عضو مجلس النواب وصاحب صحيفة «الساهر» فحمل على هذه الجماعة وقال إنهم فئة من سبعة وأربعين ألفا موصومين بالشذوذ الجنسى ومنبثين فى المراكز وفى دوائر المجتمع على اختلافها ، وأسماؤهم جميعاً محصورة فى سجل محفوظ عند إدارة المخابرات الألمانية يستخدمونه فى التهديد والاطلاع على الأسرار ، وخص بمبرتون بحملته فتاة راقصة مشتركة فى جماعة المسرح المخصوص ، تتطوع لتمثيل دور شلومة وتستبيح فى تمثيله ما لا يستباح على المسارح الإنجليزية .

ثم ساقته هذه الفتاة إلى المحكمة ، ودافع بمبرتون عن نفسه فدل على نسخة الكتاب الأسود التى وصلت أخبارها إليه ، وزعم أنها منقولة من الكتاب الأصيل ومودعة عند الأمير وليام فيد Vied الألبانى الذى كان ملكاً لألبانيا أثناء الحرب العالمية الأولى .

وأخطر ما فى القضية أن بمبرتون جاء بشهوده الذين اطلعوا على الكتاب إلى المحكمة فذكروا بعض الأسماء التى اطلعوا عليها فى الكتاب ومنها اسم القاضى دارلنج Darling الجالس لمحاكمته ، وأسماء أناس من الوزراء والقادة .

ولما وصل الشاهد إلى سرد الأسماء قاطعه القاضى وأمره بالسكوت وقال له فى حدة وغضب : «إننى لم أعترض أقل اعتراض على تصريحك باسمى فى هذا الصدد . ولكننى أصر على حماية الغائبين عن الجلسة» .

* أخبار اليوم : ١٩٥٤/٢/٢٠ .

ودعى للشهادة فى هذه القضية لورد ألفريد دوجلاس عشيق أوسكار وايلد الذى كان يوماً من الأيام موظفاً بالوكالة البريطانية فى القاهرة ، فسئل عن ترجمته للمسرحية من الفرنسية إلى الإنجليزية فكانت شهادته وتعقيبات المعقبين عليها وصمة لا حاجة بنا إلى تفصيلها . ولكنها هى وما شابهها مما هو أقذر من كل مجونيات أبى نواس مدونة فى تقارير النفسانيين وبعضهم علماء مختصون يرتفعون بنسبة الشواذ فى ألمانيا نفسها - حيث يحفظ الكتاب الأسود - إلى أكثر من عشرة فى كل مائة ، ويرد فى هذه التقارير أسماء غليوم وبيلوف وطائفة من زعماء النازيين .

وقد سئل المحلفون عن رأيهم فى بمبرتون هل هو مذنب أو غير مذنب فاتفقوا بعد اجتماع قصير على أنه غير مذنب . واضطر القاضى دارلنج إلى إعلان براءته . وهى براءة لا يخفى ما تدل عليه .

ثم عاش بمبرتون إلى أن توفى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بسنتين . فعاد الحديث عن القضية لهذه المناسبة وضمنها مونتجمرى هيد من رجال القانون والبرلمان كتاباً خاصاً عن القضايا التى غيرت القانون .

فليست فضائح لندن وبرلين وباريس ونيويورك بأهون من فضائح بغداد . وليس الراقصون بالليل والنهار بأشرف ممن لا يرقصون ، وليس إحصاء الكتاب الأسود فى عاصمة واحدة بأقل من إحصاء الديوان النواسى وما احتواه من القصائد والأبيات .

**وتهميشات .**

وننتقل إلى الهامش فنقول «أولا» إنها سواء كانت حرباً أو غير حرب فماذا يضير الأستاذ سلامة منها ؟ . . إنه لخليق أن يوقن بالتطوع لمؤازرته من أولئك الذين يعنيهم العقاد جداً ، أو يعنيهم جداً جداً ، فيقولون الأرض كلما قال السماء ، ويقولون اليسار كلما قال اليمين ، ويقولون لعنه الله كلما قال حياه الله !

وواحد منهم على ما نظن يخصنا بعنايته فى اختيار الصور . . ونطمئنه على ذخيرته فنؤكد له أن عندنا صوراً لنا نحفظها «أشوه» من كل صورة فى يديه . فإذا نفدت الصور التى عنده فلا يخف ولا يحزن . فإن الصور التى عندنا فى الخدمة حين شاء !

ونقول «ثانياً» بعد انتقالنا إلى الهامش أن صديقنا الأستاذ الشناوى يتواضع حين يذكر المعارك القلمية وينسى حصته المباركة فيها .



قال فيما قال «وقامت معركة عنيفة بين الأستاذين الكبيرين عبد القادر حمزة فى البلاغ ومحمد توفيق دياب فى الجهاد» .

ونسى أن يقول : «وكان الأستاذ الشناوى يتناول التلفون ليتحدث لحظة إلى الأستاذ أنطون الجميل فى الأهرام ويتحدث بعدها لحظة إلى الأستاذ دياب ويتحدث بعدهما أو قبلهما إلى الأستاذ عبد القادر حمزة . ويعمل جهده فى هذه المحادثات الفنية للتهدئة والتوسط واستدراج حفنى محمود رحمه الله إلى الوساطة بين الخصوم ، وأنه نسى فى جميع هذه المحادثات أن يذكر اسمه مستتراً بأسماء غيره وغيرهم ، ومبالغاً فى التواضع ونكران الذات . .

وهى حصة ينساها الأستاذ الشناوى ولا يصح أن ينساها التاريخ .

وعلى فكرة . .

نعم على فكرة لا تنسى أيضاً كلما ذكرت عجائب المصادفات ، وينبغى أن نذكرها لنذكر دائماً أن المصادفة تأتى بالخوارق فى كثير من المناسبات .

إن الأستاذ الشناوى يكتب يومية الثلاثاء عن الحروب القلمية فيقول فيها ما قال عن حرب البلاغ والجهاد .

ثم يكتب بعدها على الأثر يومية الأربعاء عن تشابه الأصوات . .

فياللعجب . . هل لتشابه الأصوات يد فى إحدى هذه المناسبات ؟ . .

الله أعلم ، ومن الناس من يعلمون وينسيهم التواضع نصيبهم المأثور فيما يكتبون .

# كانت *

فاتنا أن نشهد الحفل الذى أقيم فى القاهرة تحية لذكرى الفيلسوف العظيم عمانويل كانت لانقضاء مائة وخمسين سنة على وفاته . ولكن لا يفوتنا أن نشكر الدكتور عثمان أمين لقيامه عن أدباء مصر بهذا الواجب وسداد هذا الدين وهو دين يستحقه الفيلسوف فى ذمة كل شرقى على الخصوص وكل مناهض لزبانية الطغيان والاستعمار .

وإنما يعزينا عن هذا السهو - فى هذه الذكرى الأخيرة - أننا سبقنا الدكتور عثمان أمين إلى قضاء هذا الدين بثلاثين سنة ، ولعلنا انفردنا يومئذ بتحية الفيلسوف العظيم فى هذه الديار ، فكتبنا عنه فصلين لانقضاء مائتى سنة على مولده سنة ١٧٢٤ وسرنا يومئذ أن يطلع عليهما الدكتور جرمانوس المستشرق المجرى فيقول : «إنه يتكلم الألمانية منذ صباه وإنه يقرأ (كانت) ويقرأ شراحه باللغة الألمانية ، ولكنه لم يفهم (كانت) بتلك اللغة كما فهمه من ذينك المقالين باللغة العربية . .» .

## سابق لأوانه وفى أوانه

وخير ما يذكر به فيلسوف العصور الحديثة الأكبر أنه نشأ فى القرن الثامن عشر ولا يزال سابقاً لأوانه فى القرن العشرين ونحسب أنه سيظل سابقاً لأوانه عدة قرون .

ويقال ذلك عنه فى المحسوسات كما يقال فى المعقولات ، فإنه قرر مكان السيارات الشمسية التى كشفت بعد تقدم التلسكوب وهو لا يعول على شىء غير التقدير المضبوط والحساب الدقيق .

ويظهر فضله فى هذه الفطنة النافذة متى علمنا أن الفيلسوف هيجل خليفته فى الشهرة العالمية ، والذى ولد بعده بنحو أربعين سنة ، قد سخر من علماء الفلك

* أخبار اليوم : ١٩٥٤/٢/٢٠ .



لأنهم يبحثون عن سيارة ثامنة . . . قال : ولو أنهم نظروا فى مباحث الفلسفة بعض نظرهم فى مباحث علم الهيئة لوضح لهم أن السيارات سبع ، ولا يمكن أن تكون أكثر من سبع ، ولا أقل من سبع بأى حساب .

ولم يكد كتابه الذى يقرر فيه هذه البديهية على زعمه يظهر وينتشر بين المؤمنين به ، ومنهم كارل ماركس ، حتى أعلنت المراصد الفلكية ظهور سيارة ثامنة وانتظار سيارات أخرى لم يبلغها الرصد إلى ذلك الحين . .!

إن دقة «كانت» فى هذه المحسوسات تجاريها ، بل تسبقها ، دقته فى المعقولات ، ومنها قضية الاستعمار وقضية السلام .

فقد كان الاستعمار يومئذ يخطو فى الشرق والغرب خطواته الأولى ، وكان الحكيم يتطير من عواقبه على السلام العالمى وينبئ الناس بالحروب الكثيرة والثورات الجائحة التى تهددهم من جراء مطامع المستعمرين ، وكان اعتقاده الذى أعلنه فى بروسيا ولم يحذر عواقبه أن القضاء على الاستعمار مرهون بقيام الحكومات الجمهورية التى لا تستغل جهود الأكثرين لإشباع نهمة الأقلين .

## مبارزة بسلاح البرهان

وعلى رصانته الراجحة كان أصحابه يعلمون أن إثارة موضوع الاستعمار كافية لاستدراجه إلى الكلام والإفاضة فى الشرح والتعليق ولو فى الطريق .

فاتفق يوماً فى حديقة عامة أن أناساً من أصحابه استوقفوه وفتحوا معه موضوع الحرب بين بريطانيا العظمى والثوار الأمريكيين ، فنسى نفسه وحمل على الدولة البريطانية حملة شعواء وانتصر لكل أمة من أمم الشرق والغرب تطمع فيها دول الاستعمار .

وإنه لينطلق فى هذه الحملة العنيفة إذا برجل قوى ينحنى أمامه ويدعوه إلى المبارزة .

وسأله الفيلسوف : ولم يا صاح ؟

قال الرجل " لأننى إنجليزى ، وأنت منذ ساعة تهين بلادى على مسمع من هؤلاء" .

ولا ننسى أن الفيلسوف الذى كان يقتحم الأخطار الكبار بشجاعته الأدبية لم تكن له قدرة كهذه القدرة فى مبارزات السلاح ، ولم يعرف السلاح قط فى حياته

التى قضاها بين المعاهد والمكتبات . وكان هذا المارد الفكرى قزماً لا تزيد قامته على خمس أقدام ، وقلما تقوى رجلاه على حمله برأسه الكبير .

ولكنه لم يتلجلج ولم يتلعثم أمام دعوة المبارزة ، وقال له إنه يختار سلاحه ويبارزه بسلاح البرهان . . لأنه هو السلاح الذى وقعت به الإهانة ، أو وقع به العدوان !

وغنى عن القول أن صاحبنا قد اختار سلاحه وهو عارف بقوته فيه . فلم يلبث خصمه أن اعترف بالهزيمة وطاب له حديثه فاسترسل معه فيه . ولم يشعر بنفسه إلا وهو على مقربة من مسكن الفيلسوف . والفيلسوف يدعوه إلى زيارته ! فكانت هذه الزيارة فاتحة الصداقة الطويلة بين الخصمين . !

## فى أوانه بالسنة واليوم

ومن المصادفات التى تتفق كثيراً فى سير نوادر العبقريين أن هذا الحكيم العظيم الذى يقال عنه بحق أنه سابق لأوانه فى علمه وتفكيره قد كان مرهوناً بوقت معلوم فى رسالته الفكرية ، وكاد هذا الوقت المعلوم أن ينطبق على أيام عمله بالسنة واليوم ، فلو تقدم قليلا أو تأخر قليلا لضاع فى الظلمات وذهب اسمه بين غمار المنسيين والمجهولين .

قال شوبنهور : «إن عمانويل كانت كان الجوهرة العليا فى تاج فردريك الكبير فما كالمثل كانت كان يعمل أستاذاً بمرتب من الدولة فى ظل حكومة أخرى من حكومات الكرة الأرضية ثم يؤذن له بما قاله فى كتبه عن الملوك . ولو أنه تقدم قليلا أو تأخر قليلا لما كان عندنا ذلك الشخص المسمى باسم عمانويل كانت ، ويندر أن يكون الحكام من الرجال العظام . فإذا بلغ من عظمتهم أن يدركوا عظمة الآخرين فهم جدراء بالحمد من بنى الإنسان» .

ولقد حدث فعلا بعد موت فردريك الكبير أن ابنه غضب على الفيلسوف ونقم عليه جرأته فى آرائه ومعتقداته . ولكن الفيلسوف كان قد فرغ من أهم كتبه وأدى أمانته لتلاميذه ومريديه ، وكان قد شاخ وبلغ السبعين وأحب الإخلاد إلى الراحة ؛ فكف عن الكتابة المثيرة واعتذر بطرفة من طرف المعاذير لا نذكر لها نظيراً غير اعتذار فرنسيس باكون من نوع آخر ، قبل ذلك بنحو مائتى سنة .

فأما كانت فقد كان عذره أن كلامه غامض لا يفهمه أحد من عامة القراء فلا خوف منه عليهم ولم يكذب كانت فى هذا الاعتذار ، بل لعله بالغ فى الاعتدال



حين قال إن عامة القراء وحدهم هم الذين لا يفهمونه . . وإنه ليعلم أن صديقه «هرتز» من طبقة المفكرين قد أعاد إليه كتابه قبل أن يتمه ، وقال إنه يعيده إليه قبل أن يذهب به إلى المارستان !

أما اعتذار فرنسيس باكون فقد كان تحفة أخرى من تحف الاعتذار الغريبة لأن هذا الفيلسوف – إمام الفلسفة التجريبية – كان كبيراً للقضاة فاتهم بالرشوة فلم ينكرها ، ولكنه قال إنه يتقبل الهدايا من الخصمين ليقاوم الزيغ والانحراف ويضطر إلى الحكم بينهما بالإنصاف !

ولم تكن توبة نصوحاً من جانب رسول السلام والمسالمة ، فقد عاد إلى الكتابة عن الثورات والأخلاق فلم يقلع عنها إلا وقد علت به السن وأطبق الخوف على ذلك الدماغ الضخم وودع الحياة وهو لا يعلم أنه يودعها ويستقبل ما وراءها ، ومن سخرية المقادير أن ذلك الرأس القوى الذى حاول أن يحيط بما بعد الحياة والموت ، قد مات وهو لا يعلم أنه يموت !

# الناخب المصرى وفلسفة أرسطو ..*

قرأت فى هذا الأسبوع الكتاب الأول من «تطور الفكر السياسى» الذى ألفه الدكتور جورج هولاند ساباين وترجمه الأستاذ حسن جلال العروسى ، ولخصه العلامة السنهورى فى مقدمته البليغة بكلمتين إذ قال : «إن الحكم الصالح لا تتلمسه فلسفة الإغريق فى الحكم المطلق للفيلسوف ولكن تنشده فى مبدأ سيادة القانون» .

من كان فى شك من الحكمة السائرة التى تقول : «إن الإنسان إنسان حيث كان» .. أو كان فى شك من قول القائلين «إنه لا جديد تحت الشمس» فليقرأ هذا الكتاب فإنه سيعرف بين ما يعرفه من دروسه الكثيرة أن مسائل الحكم والسياسة قديمة فى أصولها ، وأن أنواع الحكومات وعيوبها جميعاً معهودة منذ العصور التاريخية الأولى ، وأن أفلاطون وأرسطو ومن عاصرهما من فلاسفة اليونان لا يستغربون شيئاً لو انبعثوا من الأجداث ونظروا إلى العصر الحاضر كما نراه بمشكلاته ومعضلاته وحلوله وأحكامه ، وتقلبوا فى أرجاء العالم من مشرقه إلى مغربه ومن أرفع الأمم إلى أقل الشعوب والقبائل نصيباً من الحضارة وشئون السياسة والحكومة .

مشكلة الحكم المطلق ، ومشكلة الحكم الشعبى ، ومشكلة التفاوت فى الثروة ، ومشكلة الطبقات الحاكمة ، ومشكلة الانتخاب وأصحاب الحق فيه ، ومشكلة الفارق بين حقوق الرجال وحقوق النساء ، ومشكلة الملكية والشيوعية ، وغير ذلك من المشكلات التى نقرأ أخبارها فى صحافة اليوم هى هى هذه المشكلات التى يعرضها الكتاب إذ يعرض لنا آراء أفلاطون وأرسطو ويلم بما سبقها من آراء الإغريق والفرس التى لم يتغير منها إلا اتساع النطاق . وظهور الجسد القديم فى ثوب جديد .

ومن المفيد للعقل الإنسانى دائماً أن يعرف أصالة المسائل التى يعالجها أو يفكر فيها ، فإنه يفهمها خطأ ولا ريب إن فهم أنها بنت اليوم وأنها شىء لم يسبق له مثيل فى الجملة والتفصيل .

* أخبار اليوم : ١٩٥٤/٤/٣ .





وأذكر على سبيل المثال مسألة كنت أعتمد فيها على أرسطو وأرى الأدلة الوافرة على صوابها من تجاربنا العصرية ، وهى مسألة الناخبين واختلاف حقوق الانتخاب بين المتعلمين والجهلاء .

إن التجارب العصرية جميعاً تثبت رجاحة رأى الفيلسوف الكبير فى حقيقة الملكة الانتخابية ، فهى مسألة بداهة وعادة وليست مسألة علم وفلسفة ، أو هى مسألة تجاوب وامتزاج بين المعلومات وليست مسألة آراء متفرقة ينفرد بها أصحابها هنا وهناك ، دون أن تصهرها البوتقة العامة فى بيئة تتخلق من بينها ويتخلقون منها .

وحدث كثيراً أن بعض إخواننا فى المجالس النيابية كانوا يقترحون تمييز المتعلمين بزيادة الأصوات ، أو يقترحون حرمان الأميين من الانتخاب ، فلم أكن أناقشهم برأى أرسطو لأن الرد عليه سهل جداً على لسان العارف : وغير العارف : وهو الابتسام مع القول بأن الفلسفة شىء والواقع شىء آخر ، أو مع القول بأنها نظريات وأحلام «طوبية» لا تقبل التطبيق فى العصر الحديث .

ولكننى كنت أناقشهم بالواقع المتكرر من تجارب الانتخابات بين المتعلمين وغير المتعلمين ، وكنت أضرب المثل لهم بانتخابات المحامين والمهندسين والمعلمين والأطباء فى نقاباتهم ، وأسألهم أتعتقدون حقاً أنها خير من انتخابات المجالس النيابية وبخاصة ما تقدم منها فى تجاربها الأولى ؟ فكان الواقع يضطرهم إلى الاعتراف بالحقيقة ، ويقنعهم بأن العادة هنا أفعل من العلم والذكاء ، وأن المسألة الكبرى فى الديمقراطية مسألة تربية خاصة وليست مسألة العلم الغزير والثقافة العالية ، إلا أن تكون من قبيل الثقافة التى تسرى بالقدوة والعدوى وعلى غير قصد فى كثير من الأحيان .

## الديمقراطية الصحيحة

وليس هذا كل ما يقال عن خطأ القائلين بحرمان الأميين حق الانتخاب فإن الأميين إذا كانوا فى الأمة قلة لا تزيد على خمسة أو عشرة فى المائة فمن الجائز حرمانهم مع المحافظة على قواعد الديمقراطية ، لأن رأى تسعين فى المائة مقدم على رأى العشرة الباقية ، ولا يخل بالحرية الديمقراطية أن يتغلب حكم الأكثرين على حكم الأقلين .

لكن الأمية فى الشرق هى الكثرة الغالبة ، وليس من الحرية الديمقراطية فى شىء أن تجرد أربعة أخماس الأمة من الحقوق وأنت تفرض عليهم الواجبات وأن تحملهم مهمة الدفاع عن الوطن وأداء الضريبة وتعاملهم معاملة الأجانب الغرباء أيام الانتخاب .

هذا إلى ملاحظة لابد من الالتفات إليها فى هذا الصدد ، وهى سبب حرمان الأميين حق الانتخاب فى بعض الأمم ولا سيما الأمريكية ، فإنه هنالك حيلة يقصد بها حرمان الهنود الحمر والزنوج حقوق المساواة دون التعرض لتهمة التمييز بين الأجناس ، وليست هذه الحيلة مما يجوز بين أبناء الوطن الواحد والجنس الواحد والصفة القومية الواحدة ، بل هى مما لا يجوز مع اختلاف الأجناس كما لا يجوز كل احتيال فى هذا المقام .

### الواقع قبل الفلسفة

على أن الواقع من تجارب الانتخاب فى مصر يثبت لنا أن «الناخب المصرى» سواء كان من الأميين أو المتعلمين قد أدى الأمانة فى مواقف كثيرة على أحسن وجه يراد من الناخبين فى أرقى الأمم .

ولست أحب أن أصف الناخب المصرى بصفة واحدة مطلقة تنطبق عليه فى جميع الأوقات وجميع المناسبات ، ولكنى أذكر المواقف التى نعلم علم اليقين أنه بلغ فيها الغاية من الأمانة الانتخابية ، ونبدأ من المجلس النيابى الأول قبل ثمانين سنة ، وننتهى إلى تجاربنا الأولى فى الجمعية التشريعية ثم فى البرلمان بعد إعلان الدستور .

### قبل ثمانين سنة

رجعت إلى أسماء النواب المنتخبين لمجلسنا النيابى الأول على عهد إسماعيل ثم على عهد توفيق ، وكانت شروط الانتخاب يومئذ ضيقة بالغة فى الضيق ، ولكنها على كل حال كانت عامة مطلوبة من جميع المرشحين بغير استثناء ، ولم يكن فى وسعى أن أتثبت من أحوال الانتخاب فى كل إقليم فاكتفيت بالأقاليم التى أعرفها وأعرف الأسر والمرشحين من أبنائها ، وسألت من يعرف الأقاليم الأخرى هذه المعرفة ، ويستطيع من شاء أن يتقصى الأمر فى بلده على هذا النحو فإن النتيجة التى ننتهى إليها بعد مراجعة أحوال الانتخاب جميعا هى صحة التمثيل النيابى



فى القطر كله ، بحيث يصدق القول على كل نائب وصل إلى المجلس أنه أحق أبناء إقليمه بالنيابة عنه فى تلك الأحوال .

### وفى الجمعية التشريعية

– وننتقل إلى انتخابات الجمعية التشريعية منذ أربعين سنة ، فإن وقائعها مذكورة بتفصيلاتها وعواملها الخفية والظاهرة ولا سيما دوائر القاهرة والإسكندرية .

إن الناخب المصرى قد قاوم من الضغط عليه فى هذه الانتخابات ما يندر أن يقاومه ناخب فى قطر من أقطار الحياة النيابية العريقة .

كان الخديو عباس ورئيس الوزراء محمد سعيد باشا والمندوب البريطانى لورد كتشنر يحاربون سعد زغلول ويعملون جهدهم أن يحولوا بينه وبين الوصول إلى الجمعية التشريعية .

ووقف هؤلاء جميعاً فى جانب ووقف الناخب المصرى فى الجانب الآخر ، فانهزموا جملة ونجح سعد زغلول فى دائرتين هما الإمام ودائرة السيدة زينب .

وكانت هناك قوة أخرى إلى جانب القوى التى تضافرت على مقاومة سعد فى كل من الدائرتين .

كان المرشح أمامه رجلا له صفة دينية فى دائرته وهى مشيخة الإمامين ، وكان الناس يذكرون حملات «ظلموك يا سعد» التى كان الشيخ عبد العزيز جاويش يكتبها فى اللواء لسان الحزب الوطنى يومذاك ، فاستطاع الناخب المصرى أن يحكم حكمه بين هذه العوامل المتألبة عليه ، وكان آية فى صدق البداهة الاجتماعية وأمانة الضمير الوطنى ، قبل أن يكون للجمعية التشريعية شأن فى ميدان الوطنية .

ومما يذكر من مفاخر تلك الانتخابات أن رجلا «كواء» من سكان المنشية عرضوا عليه جنيهين ثمناً لصوته ، وكان الجنيه فى ذلك الحين بقيمة عشرة جنيهات على الأقل فى الوقت الحاضر ، فردهما وطرد المساوم له من دكانه شر طردة ... ثم اتصل الخبر بسعد من بعض مريديه فأبت نخوته إلا أن يذهب إلى دكان الرجل فى جمع من كبار صحبه ، ثم حيّاه ووجه إليه الخطاب كأنه يحيى أميراً مالكاً فى حشد عظيم .

ولقد بذل خصوم سعد كل طاقاتهم فى تلك الأيام لصرف الناخبين عنه وتحويلهم إلى مزاحميه ، إلا وسيلة واحدة لم يستخدموها والشهادة للحق ... تلك

وسيلة التزوير فى الأوراق ، فلم يحصل قط تزوير من هذا القبيل ، ولكن وسيلة التزوير ليست مما يحسب على الناخب بأية حال .

### سنة ١٩٢٤

واتفقت هذه القوى جميعاً على محاربة سعد وأنصاره بعد إعلان الدستور ، فلم ينجح أحد فى دوائر القطر غير أنصاره ما عدا القليل الذى لا يزيد على أصابع اليدين ، وكلهم ذوو «عصبيات محلية» لا يزاحمها أحد فى إقليمها ، ولم تكن الخصومة بينهم وبين سعد محور الخلاف بين الناخبين .

وأخفق رئيس الوزراء نفسه «يحيى باشا» فى دائرته ، وأخفق أذناب الخاصة الملكية فى دوائرهم القليلة ، وغلبت إرادة الناخب المصرى كل إرادة فى ذلك العراك العنيف .

لا بل تجدد الانتخاب وأعلن أصحاب السلطان أن سعداً لن يعود إلى الوزارة ، وقد كان الانتخاب على درجتين : درجة لانتخاب المندوب عن كل ثلاثين ناخباً ، ودرجة لانتخاب العضو لمجلس النواب . فاجتهد عمال المحافظة قصارى جهدهم لإسقاط سعد فى دائرة المندوبين فنجحوا لأنهم فرقوا الأسماء ذات اليمين وذات اليسار فى كل اتجاه ، ولكن الجهود كلها حبطت دون إسقاطه ، وإسقاط الكثرة من أنصاره ، فجاء مجلس النواب وفيه مائة وخمسة وعشرون من أنصار سعد ، ولم يزد عدد الفريق الآخر على الثمانين موزعين بين الحكوميين والاحتلاليين .

ثم تعطلت الحياة النيابية أكثر من سنة ، وأنشئ حزب الاتحاد بسلطان القصر فانتمى إليه المتزلفون فى كل إقليم ، ثم حان الموعد لكتابة دفاتر الانتخاب على حسب القانون الجديد فأضرب العمد عن تنفيذ القانون ، وسيقوا إلى القضاء فخرج الكثيرون منهم بغير جزاء .

### بداهة أرسطو

إلى هنا يحق لنا أن نقول إن الانتخابات المصرية حتى سنة ١٩٢٧ قد أسفرت عن تلك البداهة التى يخلصها صاحب الكتاب عن أرسطو فيقول : «إن الحكمة الجماعية لشعب من الشعوب أسمى حتى من حكمة أعقل المشرعين . . فالأفراد فى خضم الجماعة يكمل بعضهم بعضاً بصورة فريدة . ذلك بأن يفهم أحدهم جزءاً من مسألة ويفهم الآخر جزءاً آخر ، فيحيطون فى مجموعهم بالموضوع كله» .



ولسنا نريد أن نطلق تلك البداهة وصفاً عاماً للناخب المصرى فى جميع أوقاته وجميع حالاته ، ولكننا نقرر الواقع الذى لا شك فيه حين نروى ما حدث فى تلك الانتخابات بما شهدناه وشهده غيرنا عياناً وسجلته المصادر المختلفة بالأرقام .

وقد حدث غير ذلك فى الانتخابات التالية ، فلماذا تغير المسلك من فترة إلى فترة خلافاً لما ينتظر من التقدم مع الزمن حقبة بعد حقبة وجيلا بعد جيل ؟

قبل أن نعلل ونفصل علينا أن نرجع إلى الجو النفسانى الذى أحاط بتلك الانتخابات ، فإنه أهم عامل من عوامل الاتجاه السياسى فى الجماعات .

كان جو الانتخابات بين أوساط القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو «القضية الوطنية» بل جو الحماسة القوية لهذه القضية .

كان هذا الجو محيطاً بانتخابات المجلس الأول على عهد إسماعيل لأن الأمة كانت فى حالة ثورة نفسية أمام الطغيان الأجنبى من جراء الديون والامتيازات .

وكان هذا الجو محيطاً بالانتخابات جميعاً من أيام الجمعية التشريعية إلى أيام الانتخاب الأخير قبل وفاة سعد زغلول ، وانضم إليه عامل آخر لا يقل عنه قوة وصدقاً فى توجيه الشعوب ، وهو عامل الزعامة الموثوق بها بل الزعامة التى يرتفع الشعور بها من الثقة إلى الإعجاب والإيمان بقلة النظير .

* * *

ثم ماذا جرى للناخب المصرى ؟

ثم حدث الانفصال شيئاً فشيئاً بين جو الانتخاب وجو الحماسة الوطنية والزعامة الموثوق بها أو الزعامة المحبوبة .

فلم ينجح زعيم قط فى هذه الفترة لأنه زعيم الشعب الموثوق به لخدمة القضية الوطنية ، وإنما كان النجاح يتوقف على الأمل فى الوزارة المقبلة . فكان صاحب الوزارة المقبلة على الدوام هو صاحب الكثرة فى الانتخاب .

وكان الناخب يغالط سريرته كلما تحدث عن الزعامة الشعبية ، لأنه لا يريد أن يقول عن نفسه إنه طالب منفعة وإنه يساوم على صوته وضميره ، فإن قال إنه يؤيد هذه الزعامة أو تلك فإنما يدفع التهمة التى تلصق به لو أعلن أسباب هذا التأييد ، وقد يغالط سريرته فيتوهم أو يحب أن يتوهم أنه يدين بالمبادئ ولا يدين بالمنافع والمساومات .

ويكذب على الواقع من يقول إن النحاسيين أخفقوا فى الانتخابات التى أجراها محمد محمود أو أجراها أحمد ماهر لأنهم تعرضوا للضغط والإرهاب ، فإن الضغط والإرهاب فى هاتين المرتين كان أقل من كل ضغط وإرهاب حدثا فى الانتخابات المصرية ، وإنما كان النحاسيون يظفرون كلما قيل إنهم مطلوبون للوزارة ، وكان عمل الموظفين والعمد وسماسرة الانتخاب فى هذا التحول أكبر من عمل الآحاد المتفرقين .

هل نبرئ الناخب عامة من أجل هذا ؟

هل نبرئ المرشحين ؟ هل نبرئ الأحزاب ؟

كلا . . . لا نبرئ أحداً ولا ندين أحداً ، غير أننا نعلم كما يعلم الكثيرون من طبائع الناس أنهم قابلون للتضحية وقابلون للبطولة وكلما وجد السبب الذى يرتفع بهم إلى تلك الذروة ، ولكنك تطلب كرامة القديسين إذا أردت من الناس فى جملتهم أن يتغلبوا على مصالحهم لغير قضية عامة يفهمونها ويستثار بها شعورهم من ركود الحياة اليومية .

والخلاصة التى لا نشك فيها أن الناخب المصرى يقاوم كل محنة وكل إغراء فى سبيل إيمانه بقضية وطن وعظمة زعيم فإن لم يكن هذا الشرط اللازم لصحة الانتخاب أن يكون قيام الوزارة القادمة معلقاً على نتائجها ولا تكون هذه الوزارة معلومة قبل إجراء الانتخاب ، فإذا تيسر ذلك وسلمت للناخب حريته فتمثيل الشعب فى هذه الحالة أصح تمثيل مستطاع .

## وهذا أيضاً فى الدفتر

وأصحابنا الأقدمون لم ينسوا هذه الخصلة ولم يجهلوا خطرها فى التربية السياسية ، فقد كان الناخب الأمثل عندهم هو الناخب الذى يدين بالولاء للمدينة وكانت المدينة عندهم مرادفة للوطن فى الزمن الحديث ، فكانوا يقولون إن الأثينى الحق من ينسى نفسه حين يعطى صوته أو من يوفق فى حياته الخاصة وحياته العامة فلا تجور إحداهما على الأخرى ، وكانوا مع ذلك لا ينسون أن المواطن الصالح والإنسان الصالح وصفان لا يتساويان فى المعنى إلا إذا ارتقى المجتمع إلى الأوج المثالى فى الأخلاق والملكات العقلية ، وهيهات .

قال المؤلف : «على هذا النحو كانت المدينة كما يتصورها الأثينى مجتمعاً يعيش أفراده معًا فى تآلف وانسجام ، ويتيح لأكبر عدد مستطاع من أفراده فرصة



المساهمة الفعلية فى الحياة العامة دون تمييز يرجع إلى ثروة أو جاه ، كما يعطى لكل ذى كفاية مجالا طبيعياً هنيئاً للعمل والازدهار ، ويمكن القول إلى حد كبير بأنه ربما لا يوجد مجتمع آخر نجح فى تحقيق هذا المثل الأعلى مثلما نجح المجتمع الأثينى فى عهد بركليس ، ولكنها مع ذلك كانت مثلا علياً لا حقائق واقعية ، والديمقراطية فى أفضل حالاتها لا تخلو من المثالب» .

والصحيح فى التعقيب على هذا الرأى أن الديمقراطية كثيرة المثالب ولكنها تمتاز من هذه الناحية بمزية لا تتوافر لغيرها من نظم الحكومات ، فعيوبها هى عيوب الإنسانية أو هى عيوب الأناسى الذين يشتركون فيها ، وفرق بين عيوب النظام من حيث هو نظام وعيوب الناس التى لا يلام عليها نظام الحكم ولكنها ترجع إلى طبائع المحكومين وأخلاقهم وعاداتهم ولا أمل فى صلاحها بغير التربية السياسية والتجارب المتعاقبة وتكرار الخطأ والتصحيح .

وإذا لاحظنا فى كتاب «تطور الفكر السياسى» مأخذاً فإنما نلاحظ عليه أنه خلا من الشرح الكافى للتفرقة بين الديمقراطية المعيبة والديمقراطية الممسوخة التى كان الإغريق يسمونها «أوخلوكراسى» Ochloocracy ويعنون بها شيئاً قريباً من فوضى الغوغاء ، وهذا الفارق مشروح فى كتاب المفكر السياسى بوليبيوس Polybius الذى كان أحق المفكرين أن يعتمد عليه فى هذا المقام ، لأنه يونانى تربى فى عاصمة الرومان وأحاط بتجارب النظم فلسفيّاً وواقعيّاً بين المدينة الأغريقية والدولة الرومانية ، وكان أدق من أفلاطون وأرسطو معاً فى التفرقة بين الديمقراطية المعيبة والديمقراطية الممسوخة التى تشبه الحكم المطلق وتنتهى إليه ، وتقوم على إنكار الامتياز والتسوية العددية على خلاف الديمقراطية فى صميمها وهو اتساعها لشتى المزايا والاعتراف لكل مزية بحقها ومكانها من المجتمع ، وقد كان تفصيل المذاهب التى أتى بها بوليبيوس فى تاريخه دون قصد إلى البحث النظرى والتقرير الفلسفى أصدق بياناً للنظم الحكومية جميعا فى سياق التطبيق والتنفيذ من معظم آراء الأبيقوريين والكلبيين .

والذى يشكره القارئ للأستاذ العروسى مترجم الكتاب أنه أحسن التوفيق بين الدقة والوضوح والأسلوب السائغ فى هذه الترجمة العلمية ، وأنه أضاف بهذا الكتاب القيم ذخراً جديداً إلى المجموعة السياسية العلمية التى بدأت عندنا بكتب جستاف لوبون وجون ستيوارت ميل وسبنسر وترجمة كتاب السياسة لأرسطو بقلم

الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد ، فليس ألزم للقارئ العصرى من توسيع النظر إلى أصول المباحث الأولى والحديثة فى مسائل الاجتماع والحكم والسياسة ، وليس أدعى إلى صدق النظر فيما يعرض عليه من الدعاوى والدعوات من علمه بعواقب أمثالها فيما تقدمت به تجارب الأمم ، وقد يقال عن يقين إنه ما من جديد كل الجدة قط فى هذه المذاهب السياسية التى تساق كل يوم مساقَ الجديد .

ولا نزيد على مثل واحد لبيان رأينا فى أسلوب الترجمة كما اختاره الأستاذ العروسى حريصاً على الدقة والطلاوة ، وهذا المثل الواحد يدل على غيره كل الدلالة ويطمئن القارئ إلى الثقة بالمعنى مع اختلاف المشرب أو المنهج ، فقد ترجم الأستاذ كلمتى Happy Versatility بالتغير السعيد ولا خطأ فى معنى الكلمتين بهذه الترجمة ، ولكننا نفضل أن نترجمها «بالمرونة الموفقة» لأن هذا اللفظ يؤدى معنى الاتفاق ويؤدى معنى السعادة أن يصل إلى طبقة السعادة فى قوة مدلولها ، وهى بلا شك أقوى من المطلوب بوصف التوفيق ، إذ هو أقرب إلى الوصف المريح منه إلى الوصف السعيد .



# أحد أقارب تشرشل كان يحمل البيكوية *

فى الشهر الماضى ظهر الجزء السادس والأخير من تاريخ الحرب العالمية الثانية الذى يكتبه السير ونستون شرشل رئيس الوزارة الإنجليزية فى الوقت الحاضر ، وكأنه قد ختم به تاريخه للحرب العالمية وختم به أعماله الوزارية أو السياسية ، إذا صح ما أذيع من أنه ينوى اعتزال السياسة بعد شهور .

ومن المعقول أن يكون الخبر عن اعتزاله السياسة صحيحاً لأنه لم يظهر على عادته ظهوره العنيف فوق المسرح منذ سنتين ، وسيبلغ الثمانين فى نهاية شهر نوفمبر القادم انقضى الصيف واقترب عيد الميلاد المسيحى واتفق مع ذلك أنه يحتفل بالذكرى الثمانين لمولده فتلك مناسبة صالحة للاعتزال بعد طول النضال والنزال .

## العبقرية وآفتها

هذا الجزء كسائر ما يكتبه شرشل مزيج من الأدب والتاريخ ومزيج من العبقرية وآفاتها التى يقول النفسانيون إنها تلازمها .

قيل إن العبقرية لا تسلم من بعض الاختلال .

ويقول تاريخ أسرة شرشل إن جذور الاختلال كامنة فى الآباء والأمهات ، فالدوق مارلبرو الكبير قضى السنوات الأخيرة فى حياته ذاهب اللب من أثر الصدمة التى منى بها لإهماله بعد الإقبال عليه ، والجدة سارة قيل عن كوارثها البيتية أنها أصابت رأسها كما أصابت قلبها ، والجد الأمريكى القريب - جده لأمه - كان معروفاً بأغرب الغرائب فى طموحه ومغامراته .

ولا شك فى عبقرية شرشل .

ولا شك كذلك فى لوازم هذه العبقرية سواء كشفتها الوراثة أو دل عليها بأطواره وأقواله وبعض كتاباته ، ومنها ما تقرأه فى هذا الجزء الأخير .

---

* أخبار اليوم : ١٩٥٤/٥/٢٢ .

## بينه وبين ابن سعود

وهذا بعض ما تقرأه فى الجزء السادس عن مقابلته للملك سعود رحمه الله فى إقليم الفيوم :

«فى السابع عشر من شهر فبراير أعدت العدة لاستقباله بفندق البحيرة من واحة الفيوم ، وأجلى من الفندق جميع النازلين به ، ثم نجمت مسائل شتى من المشكلات الاجتماعية ، فقد أخبرت أنه لا التدخين ولا المشروبات (الروحية) مما يسمح به فى حضرته الملكية ، وكنت أنا صاحب الضيافة فى ذلك الاجتماع ، فبادرت إلى إثارة المسألة مع المترجم وقلت له إذا كانت ديانة جلالته تحظر عليه التدخين والمشروبات فإن نظام حياتى يجعل من شعائرى المقدسة تقديساً مطلقاً Absolutely Sacred أن أدخن وأتناول الشراب قبل الوجبات وبعدها وفى الفترات بينهما . . فتلطف الملك بقبول الموقف ، وناولنى ساقيه قدحاً من عين مكة المقدسة كان ألذ ما تذوقته من الماء . . .» .

إلى أن قال :

«وترك الملك ابن سعودفى نفسى أثراً بالغاً فكان إعجابى به عميقاً لولائه الذى لا يتزعزع لنا . فقد كان على أحسنه فى الساعات المظلمة ، وقد بلغ السبعين ولكنه لم يفقد نشاط المقاتل المناضل ولم يزل يعيش عيشة الملوك الشيوخ - أو الآباء - فى صحراء بلاد العرب مع أبنائه الأربعين الأحياء وثلاث من زوجاته الأربع حسب وصفة النبى ، وأحد الأماكن الأربعة خال لا يزال . . .» .

هذه هذه العبقرية بآفاتها كلها . .؟

فليس للنبى محمد عليه السلام «وصفة» تأمر المسلم بزواج الأربع .

وليس للسيد المسيح عليه السلام وصفة تأمر شرشل بالتقديس المطلق للشراب أو التدخين .

وقد كان فى وسع شرشل أن يكتب هذه القصة بغير هذا الإيماء والإيحاء .

ولكن هل كان ذلك فى وسعه حقاً إن كانت الوراثة حاكمة وآفات العبقرية لازمة ؟!



لا نظن ، ولو أنه كان فى وسعه أن يتجنبه لتجنبه ، فما كان أحد ليضطره إليه ، لولا أنه اضطرار لا حيلة له فيه !

## مساومات السياسة

وليس من غرضنا أن نعقب بالنقد المفصل على أجزاء الكتاب ، فإنه يبلغ أربعة آلاف صفحة لا تخلو إحداها من حادث أو خبر أو قضية ، ولكن القليل منه قد يغنى عن الكثير فى بيان «أسلوب المساومات» بين سياسة الدول ، ولا سيما هذه المساومات التى تجنى على الأمم الضعيفة ، وأولها المساومة على قناة السويس !

جرى ذكر الهيئات الدولية والأصوات المعدودة فيها فقال ستالين : «افرضوا أن الصين على اعتبارها عضواً دائماً بمجلس الأمن طلبت إعادة هونج كونج أو أن مصر طلبت إعادة قناة السويس فإنهما لا تنفردان ، وربما كان لهما أصدقاء أو حماة فى جمعية الأمم أو فى مجلس الأمن .

«فقال شرشل : على حسب ما أفهم لا يمكن أن تستخدم قوى الهيئة العالمية ضد بريطانيا إن لم تكن مقتنعة ورفضت الموافقة .

«وسأل ستالين : أهذا صحيح ؟ فأكدت له أنه صحيح .

«وقال مستر إيدن موضحاً : إنه فى هذه الحالة يحق للصين أو لمصر أن تشكو ، ولكنه لا يمكن أن يتخذ قرار يتضمن استخدام القوة بغير مراجعة حكومة جلالة الملك ، وأكد مستر ستيتنكس أن العقوبات لا تفرض إلا بإجماع الأعضاء الدائمين ، وإن كان من الجائز تزكية المقترحات التى تقدم للتسوية السلمية .

«قال ستالين : إنه يخشى أن تؤدى المناقشات حول هونج كونج وقناة السويس إلى تمزيق الوحدة بين الدول الكبرى الثلاث .

«فأجبته بأننى أقدر الخطر ، ولكن الهيئة العالمية لا تعطل بحال من الأحوال على الاتصال الدبلوماسى بين الدول الكبار أو الصغار ، وأن الهيئة العالمية منفصلة على حدة ولأعضائها أن يستمروا فى بحث مسائلهم بينهم ، ومن الحماقة أن تثار داخل الهيئة العالمية مسائل تمزق الوحدة بين الدول الكبرى .

«قال ستالين : إن زملائى فى موسكو لا يستطيعون أن ينسوا ما حدث فى شهر ديسمبر سنة ١٩٣٩ خلال الحرب الروسية الفنلاندية حين استخدم الانجليز

والفرنسيون عصبة الأمم ضدنا ونجحوا فى عزل الاتحاد السوفيتى وإخراجه من العصبة ، ثم راحوا يؤلبون الأمم علينا وتحدثوا فى إعلان الجهاد على روسيا ، أفلا نستطيع أن نحصل على بعض الضمانات التي تحول دون تكرار هذا مرة أخرى ؟

«قال مستر إيدن : إن الاقتراح الأمريكى يجعله من المستحيل .

«فسأل ستالين : أليس من الممكن إضافة موانع أخرى ؟

«فقلت : إن هناك تدبيرات متخذة عن الإجماع بين الدول الكبرى .

«قال ستالين : إننا نسمع اليوم بذلك للمرة الأولى .

« فسلمت أن هناك مجازفة باحتمال إثارة التهييج على إحدى الدول الكبرى – كبريطانيا مثلا – فيكفى أن أقول فى هذه الحالة إن الدبلوماسية العادية تؤدى مهمتها فى الوقت نفسه ، ولا ينبغى أن أتوقع أن الرئيس يثير أو يؤيد حملة على بريطانيا العظمى ، وأشعر بيقين أن كل شيء سيعمل لوقفها كما أشعر فى مثل هذا ليقين بأن المارشال ستالين لن يهاجم الدولة البريطانية – بالقول بداهة – قبل أن يتحدث إلينا أولا ويجرى البحث فى وسيلة التسوية الودية .

«قال ستالين : نعم . . .» .

وهكذا يتفاهمون ويعقدون صفقات المساومة وتبادل الرضى بالعدوان على الأمم الصغيرة ! «دعوا لنا فنلاندا وما شابهها ندع لكم هونج كونج وقناة السويس وما شابههما . . . وتجرى المهام الدبلوماسية أثناء ذلك على حدة باسم الوحدة العالمية» .

ولقد كتبوا ميثاق الأمم المتحدة على الورق ، ولكن الميثاق الذى جرى عليه العمل بغير كتابة هو هذا الميثاق الذى يفهم من وراء الجدران والأوراق .

## شرشل بك

والمعلوم أن السير ونستون شرشل ينتمى إلى أسرة الدوق (مارلبرو) وأن اسم شرشل أضيف إلى أعلام الأسرة بعد موت الدوق مارلبرو بغير عقب مباشر ، ولكن المجهول أن سلفا من أصحاب هذا الاسم أقام زمناً فى الشرق وتزوج منه وزوج بناته فيه وأنعم عليه بلقب البكوية منذ مائة سنة ، إن صح الخبر الذى قرأناه فى مذكرات الدكتور شاكر بك الخورى طبعت سنة ١٩٠٨ بمطبعة الاجتهاد فى بيروت .



يقول الدكتور من الصفحة الـ (٤٥٦) بعد رثائه للشاب فؤاد بن الأمير سليم شهاب من السيدة جلنار ابنة شرشل بك الانجليزى :

«شرشل هو من أعرق الأسر الانكليزية شرفاً ولم تزل أسرته من اللوردات فى إنكلترا . حضر إلى سوريا مأموراً عسكرياً سنة ١٨٤٦ وبقى فيها ولم يرجع إلى إنكلترا وتزوج من النساء الشرقيات وهو سياسى محنك خبير رزق ابنتان وغلام ، (هكذا) سماه ونستن عرفته جيداً وتزوجت بنتاه ، الواحدة بالأمير شهاب ، والثانية بالأمير سليم منصور شهاب والدة فؤاد ، وكان لشرشل بك أخت فى إنكلترا أوصت بقسم من أملاكها أو قيمة أربعة آلاف ليرا إنكليزية لأولاد أخيها من زوجتها خانم وبعد وفاتها دخلوا بالدعاوى وأخيراً اقتسموا المال حسب الوصية ونالت زوجة الأمير عبد الله حصتها من الإرث . أما ولده فتزوج فتاة إفرنسية أتى بها إلى سوريا ثم انفصل عنها وتوجهت لبلادها غير أنه تبعها أخيراً ولا أعلم ماذا صار به بعد ذلك . إنما بلغه أنه توفى بلا عقب . .» .

أما الشاب الذى رثاه الطبيب الشاعر فقد قال عنه فى مذكراته قبل ذلك إنه «هو فؤاد بن سليم منصور الشهابى . . كان شاباً وحيداً بلغ السابعة عشر وتعلم بمدرسة الآباء اليسوعيين فمرض بداء الجنب وتوفى وله سبع شقيقات هو وحيد بينهن . وقد حزن لفقده كل من عرفه وقد نظموا له عدة «مراثى» وكنت من جملة رثوه . أما والدته فهى ابنة شرشل بك الانجليزى الذى كان قائمقامًا فى الجند الانكليزية وهو من أسرة عريقة فى الشرف لم تزل إلى اليوم» .

فها هنا اسم «شرشل» واسم «ونستون» ولقب اللوردية والعمل فى الجندية ، فمن يكون هذا الضيف الشرقى أو المستشرق من تلك الأسرة التى لا تذكره ولا تذكر الشرق كله بخير ؟

إن صاحب المذكرات الدكتور شاكر بك الخورى قد يدعوك إلى الابتسام بأسلوبه الكتابى وغرائب عصره . ولكنه كان ولا شك من ذوى الاتصال الوثيق بتاريخ الأسر الشرقية ، وكان من الطلاب اللبنانيين القلائل الذين سمح لهم بحضور الدروس الطبية فى مدرسة القصر العينى برعاية الخديو إسماعيل ، ولما حضرت السيدة حسن جهان قرينة الأمير بشير قاسم الشهابى إلى مصر كان هو الطبيب الذى اختاره الأمير لمعالجتها والعناية بها ثم ندب للسفر معها عند عودتها ، ثم وقع عليه الاختيار لمصاحبة أسرة روزفلت فى رحلتها النيلية منذ نحو خمسين سنة وعلى رأسها السيدة روزفلت الأم ومعها ولداها كرنيليوس وفرنكلين الذى تولى الرئاسة وتوفى منذ بضع سنوات .

فإذا كتب رجل كهذا خبراً عن أسرة شرشل وعلاقتها بالأسر الشرقية فهى كتابة مطلع يعلم ما يقول ، وأبعد ما يكون عن احتمال أن تكون القصة كلها من قصص المشابهة فى الأسماء لأن أسَر النبلاء الانجليز لم يتكرر فيها اسم أسرة شرشل واسم ونستون على الخصوص .

فمن يكون شرشل بك هذا من أسلاف السير وأبناء الدوق ؟ ومن فى لبنان اليوم من ذرية بناته أو من ذريته هو بعد زواجه من إحدى السيدات اللبنانيات ؟ وكيف يكون الاتصال بين شرشل اللبنانى وشرشل الإنجليزى إذا تعارفا اليوم معرفة الأقارب والأصهار .

إن وجد فى لبنان من يذكر هذا النسب فخير ما تصنعه لبنان أن تجنده لمفاوضة قريبه نصير الصهيونية فى مشكلة إسرائيل ، أو تجنده لإقناعه بحق الشرف وحق بنيه ، ومنهم عمومة له وأخوال !

## طرائف التاريخ القريب

على أن الدكتور شاكر الخورى جدير - بحقه الشخصى - أن يذكر فى سياق التاريخ وفى سياق اللغة وفى سياق الفكاهة ، فإنه على أسلوبه المضحك يحسن الفكاهة ويقبلها إذا أصابته ، وقد أصابه منها الكثير وضجر منه ولكنه أحاله على الطبيعة المصرية التى لا تعذر أحداً وقع فى طريق القافية .

## الحمار صاحب السعادة

ومن فكاهته أن الطبيب الكبير «محمد على البقلى باشا» كان يلقى درسه المشهور ، وكان من هيبته يخيف الطلاب فلا ينبس أحدهم بكلمة فى حصته ، ويخيف الموظفين بالمستشفى فيمنعون كل ضوضاء فيه ومن حوله ، ولكنهم فى ذلك اليوم سمعوا ضجة عالية يتخللها نهيق حمير وصياح أناس هنا وهناك ، فنظر الدكتور البقلى إلى طالب سورى اسمه بشارة وأمره أن يتعرف جلية الخبر ، فجاءه بعد لحظة بخبر عن حمار الباشا لم يدر كيف يلقبه وكيف يتكلم عنه وهو - فى عرف الطالب - حمار لا يمكن أن يشبه الحمير .

قال : «إن سعادة حمارك عندما رأى دابة مصطفى أفندى ابتدأ بالنهيق . .»

ونظر الباشا إلى صاحبنا يقول له سائلا : يا شاكر ! هل تمنحون الرتب والألقاب فى بلادكم لحميركم ؟

قال شاكر : نعم يا سيدى ، ولذلك نقول لبشارة : يابشارة أفندى .



## العامية من جيل إلى جيل

أما فكاهة صاحبنا على الرغم منه فهى فكاهة الأسلوب العامى أو المفردات العامية «كما تتطور» من جيل إلى جيل ومن بلد إلى بلد .

أراد أن يصف مستشفى قصر العينى كما وجده عند دخوله فقال «كان يسع لحد ألف فرشة وتُدخله جميع المرضى من جهادية وملكية» .

يعنى «ألف سرير» .

وأراد أن يذكر الطلبة وأدواتهم فقال «كان عدد التلامذة لحد ما يتين للطب والصيدلة وكان لبسهم ضباط عسكريين وكلهم كل سنة طقم جوخ وآخر كتان وكل ما يلزم من الطربوش إلى السرماية . . !

ولم يكن بالمدرسة - ثلاجة - ولم يكن الحصول على الماء البارد ميسوراً بغير تبريده فى «القلل» القنائية ، قال : «وكنت فى بعض الأحيان أستيقظ من النوم وأطلب الماء فأجد قلتى فارغة . ففى ذات يوم خطر لى أن أضع فى الماء قليلا من الطرطير المقىء الذى يسبب القئ ولا يضر . . .» .

وبقية القصة مفهومة لا لزوم لشرحها فى شهر رمضان !

## التشريح القاتل

أما التطور فى التفكير والفهم ، وعلى العموم فيكفى فى بيانه فرق النظر بين تشريح الجثث بين أمس واليوم ، فقد روى الطالب أن «أحد التلامذة يوماً ما قدم عريضة إلى كلوت بك وهجم عليه بينما كان يقرأها وضربه بالخنجر على رأسه فأخطأه ثم رجع وضربه فى صدره فتلقاه فى زنده ، وأخيراً مسكوا هذا الخائن وذلك بسبب التشريح .

قال : « . . إن معلم التشريح فى ذلك الوقت كان رجلا نمساوياً فمات أحد الخصيان من دائرة أحمد باشا فى الاسبتالية فأشهروا الخبر أن المعلم شرحه فابتدروا يترصدون معلم التشريح لأجل إلحاق الضرر به ، ففى ذات يوم وهو راجع ليلا إلى منزله مارا بقرب السرايا وجده اثنان من الخصيان فسألاه إذا كان يعرف معلم التشريح الذى شرح رفيقهما فأجابهما نعم أعرفه . . ماذا تريدان منه ! فقالا إنه شرح رفيقنا ، مرادنا أن نشرحه مثله ، فقال : اتبعانى وأنا أدلكما عليه . فمشى إلى أن وصلا إلى داره فدخلها وعرف اسميهما وقفل الباب وراءه ، وفى اليوم التالى أخبر عنهما فعوقبا» .

ثم عقب صاحب المذكرات على الخبر قائلا : «وكذلك كان المصبرون زمن الفراعنة عند المصريين مكروهين وكانوا يرجمونهم بالحجارة ويخلصوا من القتل بصعوبة مع أنها عملية دينية . .» .

**لا شهادة للمصريين**

ومن أطوار الزمن أن شهادة الطب كانت تسلم إلى الطلاب الشرقيين إذا أتموا دراستهم ولا شهادة للطلاب المصريين .

قال صاحب المذكرات : «وبعد الامتحان النهائي - أي بعد درس ست سنوات- تعطى الشهادة إلى تلامذة الشوام فقط ولا تعطى للمصريين ، لأن هؤلاء يبقون فى المدرسة بعد آخر فحص فتخبر عنهم عمدة المدرسة مجلس الصحة وهذا يعينهم بالمأموريات اللائقة بهم ولو لم تكن بيدهم الشهادة ، وذلك لأجل حصرهم فى مصر بحيث لا يمكنهم مغادرتها ، لأن الحكومة علمتهم مثل عسكرية ، فلو هرب أحدهم إلى البلاد الغربية لا تمكنه المعيشة بلا شهادة . .» .

وهذا نص «شهادة الشوام» على حد تعبير الطالب النجيب الذى نقلها بحرفها وهى كما يلى :

«حمدا لمن أعاد لمصر رونقها الأول بهمة عالى الهمة ، الألمعى النبيه ، من اقتدى فى نشر المعارف والمنافع بجده وأبيه ، أفندينا ولى ذى النعم الفضل الجزيل ، خديو مصر وعزيزها إسماعيل ، حفظه الله وأبقاه ، وأدام توفيقه وشكر مسعاه فإنه جدد فيها أنواع المدارس ، وأحيى كل علم رميم ودارس ، فمن جملة هذه المدارس الجزيلة وأعظمها نفعاً المدرسة الطبية التى أشرق فى المشرق نورها حتى اهتدى بها كل قاص ودان ، وأتاها القاصدون من أقاصى الأقطار والبلدان ، وكان ممن سعى إلى هذه المدرسة المنيفة رغبة فى تعلم صنعة الطب الشريفة ، الفطن اللوزعى الأديب والشاب النبيل شاكر أفندى الخورى ابن يوسف أفندى الخورى أحد أعضاء المجلس الكبير فى جبل لبنان . . .» .

ويلى ما تقدم بيان مفصل للدروس التى حضرها وأسماء الأساتذة الذين حضر عليهم وتوقيعاتهم واحداً واحداً شهوداً بصحة ما جاء فيها من ذلك البيان ، ثم يلى توقيعاتهم إقرار من «رئيس مجلس عموم صحة مصرية» يقول فيه :

«نظرت هذه الشهادة الممهورة بأختام حضرات خوجات المدرس الطبية بمجلس عموم الصحة المصرية مصدقاً عليها من سعادة ناظر ديوان المدارس والأوقاف ولأجل اعتمادها بمحل اللزوم لزم الشرح منا» .



**تاريخـــــان**

هذه المذكرات وما جرى مجراها تدخل فى باب التاريخ «غير المقصود» وهو فى اعتماد الكثيرين أصدق وأولى بالثقة من التاريخ المقصود ، لأن الفائدة منه منزهة عن التوجيه المدبر والأهواء التى تصطبغ بها أحكام المؤرخين . ولو أن صاحب المذكرات تعمد أن يكتب فصولا فى تطور الأفكار والعادات وقضية اللغة الفصحى واللغة العامية وعلاقات الأسر التاريخية لما استطاع أن يعطينا من الحقائق ما نأخذه من سطوره ومن بين سطوره على السواء .

والعبرة البينة فى أسلوب الكتابة أن لغة العلم والثقافة تتشتت وتتشعب إلى عدة لغات على حسب اللهجات والأزمنة ومبلغ المعرفة عند كتابها لو لم تكن هناك لغة فصحى تعتمد فى الكتابة العلمية والثقافية وتتخطى قيود البيئة المحدودة والزمن الموقوت ، ولهذا يصح أن يقال إن الكتابة باللغة الفصحى تفهم الآن خيراً من الكتابة بلغة العصر الحاضر فى قرية من القرى ولو كانت اللغة الفصحى لغة الجاهلية قبل بضعة عشر قرناً أو نحوها ، لأن غاية ما نجهله منها كلمة تفسرها المعجمات أما لهجات القرى فتنحصر فى حدود كل قرية وليست لها معجمات ولا يتأتى أن توضع لها معجمات تحفظها جميع القرى للمراجعة والاستشهاد .

وحبذا لو حفظ فى متاحف اللغة أثر من آثار اللهجات العامية جيلا بعد جيل لتذكير الباحثين فى اللغة بهذه الحقيقة كلما تعرضت للنسيان .

**أين مذكرات سعد؟**

وبين النظر فى مذكرات الساسة ومذكرات الرحالين والسياح يخطر لنا أن نسأل : هل قضى بالكتمان على أهم المذكرات الوطنية والسياسية التى كتبت فى مصر فى العصر الحاضر وهى مذكرات سعد زغلول ؟

لا نحسب أن سبباً من الأسباب التى نظر إليها سعد عند كتابة مذكراته قد بقى الآن حائلا دون نشرها والاستفادة التاريخية منها ، فقد ذهب الملك فؤاد وذهب وزراؤه من نظراء سعد ومنافسيه وامتنعت العوائق التى كانت تقف فى طريق ناشرها مهما يكن من حسن نيته أو سوئها ، وليس فى هذه العوائق بطبيعة الحال أن تشتمل المذكرات على آراء لا توافق مصالح مصطفى النحاس ، فإن سعداً لم يعلم أنها ستئول إلى يديه ولم يقيد نشرها بقيد من هذا القبيل .

فلماذا تطوى هذه المذكرات ؟ وإلى متى تظل مطوية عن أعين التاريخ وأعين المتطلعين إلى حقائقه وخفاياه .

لعله قد آن الأوان .

## سحر الشرق*

لقينى الزميل الصحفى المتفنن الأستاذ حبيب جاماتى فابتدرنى قائلا : ابن حلال والله .. لقد تركت الساعة على مكتبى خطاباً أعددته لإرساله إليك وضمنته بعض المعلومات عن شرشل بك الذى ذكرته فى إحدى مقالاتك ، ثم خرجت قبل أن أتم الخطاب على نية العودة إلى إتمامه وإرساله فالحمد لله أننى لقيتك لأحدثك بما كنت أنوى أن أرسله إليك ، مكتوباً فى موضوع هذا الرجل .

ثم قال الأستاذ جاماتى : إن الرجل قريب حميم لرئيس الوزارة البريطانية كما قدرت ، وله ذرية فى لبنان ومعارف وأصحاب ، وهم يذكرونه باسم شرشر بك . . . فقد عربوا اسمه كما عربوا كثيراً من أخباره وأطواره ، وهو من الشخصيات التى تحيط بها الأخبار والذكريات .

وفى ذلك اليوم نفسه وصل إلى دار «أخبار اليوم» كتاب من المؤرخ اللبنانى المعروف الأستاذ صموئيل عطية تفضل فيه ببيان موجز عن شرشل بك اللبنانى وسبب مقامه فى لبنان وانقطاعه فيه عن أسرته الانجليزية .

قال الأستاذ عطية : «إن إنجلترا أرسلت فى أوائل القرن التاسع عشر أسطولها إلى المياه السورية لمساعدة الدولة العلية ووقف الزحف الذى قامت به جيوش إبراهيم باشا ، وأن الأسطول ألقى مراسيه بميناء بيروت لكى يخير الأمير بشير الشهابى حليف إبراهيم باشا بين استسلامه لأميرال الأسطول أو نفيه إلى الآستانة . . وكان على ظهر البارجة التى تقل الأميرال بعثة إنجليزية سياسية أحد أعضائها الكولنل شرشل من عائلة شرشل المشهورة ، ففى إحدى الحفلات التى أقيمت لتكريم هذه اللجنة تعرف الكولنل بسيدة من العائلة الشهابية فهام بها وقرر أن يتزوجها ، ولما عارضته عائلته استعفى من الجيش البريطانى غير عابئ بتهديد العائلة» .

### شرشل محب للشعر العربى

ويفهم من بيان الأستاذ عطية أن شرشل بك هذا كان كاتباً متشغولاً بالتاريخ وأنه ألف كتاباً أهداه إلى صديقه الدوق ولنجتون المشهور عنى فيه خاصة بعقائد الطائفة الدرزية .

* أخبار اليوم : ١٩٥٤/٦/١٢ .



بل يفهم من أخباره أنه أراد أن يحيط نفسه بالجو الشرقى كله وهو ذلك الجو الذى يعتقد المسحورون بالشرق من الغربيين أنه لا يخلو يوماً من شعر يقال فى جميع المناسبات . فاشترى قرية صغيرة من قرى لبنان تقع بين بلدتى عالية وبحمدون المعروفتين للمصطافين ، وبنى فيها قصراً وساعده على زراعتها كثرة الينابيع ولا تزال على جسر بناه فوق أحد الأفنية لوحة رخامية منقوش عليها مايأتى :

لقد أنشاه شرشل بك جسرا ... تمر الناس فيه بالأمان
شرى هذا المكان وكان أرضا ... معطلة فصار من الجنان
شريف قد تسلسل من شريف ... وزير الإنكليز عظيم شان
نسيب مؤيد جنرال حرب ... بمارلبروك يدعى فى الزمان

والقرية اسمها «بحواره» يملكها الآن المليونير اللبنانى جورج شقير ، ويزرع بها أجود التفاح والكمثرى والخوخ ، وإلى بضع سنوات مضت كانت مبانى قصر شرشل بها لا تزال قائمة .

ويقول الأستاذ عطية : إن أسرة شرشل بك قاطعته مقاطعة تامة ، ولكن عمته عادت فاعترفت بابنه الذى كان يحمل اسم ونستون شرشل وهو اللقب أو الاسم الذى يتخذه أفراد الأسرة ، وكان الاعتراف بالابن بعد وفاة والده .

### الحمد لله

ونحن نشكر للأستاذ عطية بيانه الوافى عن شرشل بك ، ونحمد الله على تبدل الزمن وتبدل العلل والمعاذير التى يلجأ إليها الاستعمار لبسط يده على الأماكن التى يتطلع إليها ، فلو تقدم الزمن قليلا بشرشل بك هذا لاستطاعت بريطانيا العظمى أن تقيم دعواها على القرية وما حولها لأنها تضم رفات رجل من رعاياها وسليل بيت من أقدم بيوتاتها ، ولكانت حماية الرفات ورعاية الذرية «الانجليزية» سبباً صالحاً لرفع «اليونيون جاك» على الجسر أو على اللوحة التى فيها اسم «وزير الانجليز عظيم شان» .

أما والدنيا قد تبدلت بعض الشىء وتبدلت معها دعاوى المستعمرين ودعاوى الشعوب فقصارى الأمر فى سليل «مارلبروك» هذا أنه واحد من مساحير الشرق بين

مشاهير الغربيين ، وليس الذين عرفوا فى لبنان من هؤلاء المساحير بالقليل ، وفى مقدمتهم سيدة تنتمى إلى بيتين يضارعان بيت مارلبرو فى النسب والمكانة وهما بيت شاتام وبيت ستانهوب .

* * *

## فتش عن الحب

هذه السيدة هى اللادى هستر ستانهوب التى أصبحت فى الأدب الغربى أسطورة مشهورة منذ كانت بقيد الحياة قبل أكثر من مائة سنة .

هجرت بلادها وعولت على الإقامة فى الشرق بقية حياتها ، فحجت إلى بيت المقدس واختارت لها مكاناً بجوار صيدا بين عشائر الدروز أقامت فيه من سنة ١٨١٣ إلى أن أدركتها الوفاة بعد ست وعشرين سنة وهى تناهز الثالثة والستين .

أما سر هذه الهجرة فهو «هوسة حب» قلبت بهوسة دين ، فقد كانت تحب السير جون مور فمات فيئست من الدنيا واعتزمت أن تبتل بعيداً عن كل ما يذكرها بهواها ، ثم تطور معها شعور الحب المفقود إلى شعور الزهد والأمل فى البعث القريب ، فداخلها الاعتقاد أن السيد المسيح سيعود إلى الدنيا وهى قريبة من بيت المقدس ، وهيأت لاستقباله مطية يركبها لتمشى هى فى ركابه ، غيرت زيها الأوروبى فعاشت بقية حياتها فى الملابس الشرقية ولا سيما ملابس البدو من الرجال !

وكانت لا تبالى الخطر ولا تخاف البادية ، فلما اعتزمت أن تزور هياكل بعلبك - وفيها ذكريات عشتروت ربة الحب - حذرها النصحاء وخوفوها من أبناء الصحراء ، فضربت بتحذيرهم عرض الحائط ولم تندم على هذه المجازفة لأنها ذهبت وعادت فى أمان برعاية زعماء البدو الذين رحبوا بها واستقبلوها بين عمدان الهيكل بموكب من أجمل الفتيات البدويات يرقصن ويهزجن وينشدن لها الأناشيد وأنزلوا أجملهن من قوس النصر متدلية على حبل مضفور بالأزهار لتضع على رأسها إكليل الحفاوة والأكرام ، وقد سرها المقام بين أبناء البادية وبناتها فنصبت خيامها فى جوار المعبد نحو أسبوع .

قال العلامة جوليان هكسلى وقد عبر بصومعتها فى رحلة الأونيسكو التى تولى رياستها : «أى شريط سينمائى كان خليقاً أن يؤخذ من هذا المنظر» ، وقد طافت به



ذكرى هذه الناسكة «العشتروتية» وهو يتأمل هياكل تدمر وطافت به ذكراها وهو يصعد من صيدا إلى قصر المختارة حيث احتفى به وبزملائه زعيم شاب من الدروز من بيت جنبلاط .

* * *

## حرب الجان فى السويس

وظهرت فى اللغة الانجليزية كتب شتى عن هذه الأميرة الناسكة ، منها كتاب ألفته السيدة حصلب اللبنانية وكتاب ألفته النبيلة الانجليزية الدوقة كليفلاند ومنها فصل مسهب فى كتاب السائح كنجليك «فى مطلع الفجر» أجاد فيه تمثيلها ومحاكاة أحاديثها التى دار معظمها على نابليون وإبراهيم باشا وبيرون ولامرتين وكان هؤلاء جميعاً هدف السخرية والفكاهة عن السيدة البارعة فى المحاكاة ، ولكن السر الخطير الذى كشفت عنه الناسكة الساحرة إنما يدور على كنوز السويس المخبوءة ومعارك الحرب التى احتدمت حولها بين حراس السجن ونابليون تارة وإبراهيم باشا تارة أخرى ، ونقل المؤلف هذه الأحاديث فى كتاب ألفه سنة ١٨٣٥ وطبعه بعد ذلك لسنوات ، وهذه شذرات منه عن عرق الذهب الذى يستولى صاحبه على ماشاء من الذخائر والكنوز .

قال فيما نقله عنها : «إن نابليون دس ذراعه فى الكهف فيبست ولكنه لم يرتعب ولم ينهزم بل أمر جنوده بإطلاق المدافع فانطلقت على غير جدوى . إذ ماذا تجدى المدافع فى حرب الجان ! . . ثم جاء إبراهيم باشا بعد سنين بمدافعه الثقيلة وطلاسمه الخبيثة ، لأنه كان من العارفين بالسحر وأسرار العزائم والتعاويذ ، وكان محجباً محروساً من فعل الرصاص والقذائف النارية ينفضها من كسوته بعد انتهاء المعركة فتسقط كالتراب ، ولكنه لم يفلح فى استخلاص الودائع من حراسها وأرصادها .

وقص كنجليك كثيراً من نبوءاتها عن الحروب العالمية فقال : «أنذرتنى النبية أننا مقبلون على أهوال وقلاقل تذهب بكل قيمة للأرض وما عليها وأن الذين يعيشون فى الشرق هم الجديرون وحدهم أن ينعموا بعظمة الحياة الجديدة ونصحت لى أن أعمد فى متسع من الوقت إلى التخلص من كل ما أملك فى إنجلترا الهزيلة المسكينة وأن أتخذ لى ملاذاً فى الأرض الأسيوية ثم أشارت على بأن أعود إلى

سورية بعد ذهابى إلى مصر ، فابتسمت بينى وبين نفسى لأننى كنت على نية عقدتها وأبرمتها وفرغت منها إذ قررت بعد زيارة الأهرام أن أستقل الباخرة من الاسكندرية إلى بلاد اليونان . إلا أن الإنسان يجاهد القدر عبثاً ويمضى فى التدبير والله فى التقدير ، فإن النية التى لم أصدقها كانت على صواب فى نصيحتها وكان الطاعون يهددنى فى معتقل الحجر الصحى لو أبحرت من الاسكندرية ، فاضطررت إلى تغيير طريقى ولبثت بمصر برهة ثم رجعت من طريق الصحراء مرة أخرى وعدت إلى جبال لبنان كما أنذرتنى النبية من قبل ؟

وانتقل كنجليك من حديث الكوارث العالمية وحرب الجان والسحرة إلى آراء الناسكة النبية فى العقائد والمذاهب والأديان ، فقال : «إن اللادى هستر تحدثت إلىَّ طويلا فى مسائل الديانة فقالت لى أن المسيح سيأتى بعد وحاولت أن تكشف عن سخف الأوروبيين فى آرائهم الدينية وعما لديها من أسرار العظمة الروحية » .

وهنا تطرقت إلى سيرة اللورد بيرون الشاعر الإنجليزى وإلى سيرة الكونت لامرتين الشاعر الفرنسى - وكلاهما من رواد الشرق كما سيأتى - فراحت تحاكى اللورد بيرون وهو يرطن بالرومية ويظن أنه قد فهمها - الفهم الكافى لإصدار الأوامر بها إلى مخدومه اليونانى ، وراحت تحاكى النبيل الفرنسى الشاعر وهو يبالغ فى الأناقة والكياسة ويحاول أن ينسى أسلوب أبناء قومه فى كثرة الإشارات والإيماءات أثناء الحديث ، فكان إلى ظرفاء الإنجليز أقرب منه إلى نبلاء الفرنسيين .

وتركها الأديب السائح وهو يخفى ابتسامته ويكتب عنها فى حذر شديد لأن أمه كانت من حاشية أسرتها الكبيرة فى بلادها ، ولم يشأ أن يقول إنها كانت مسحورة بالشرق فلعله هو أيضا فى زمرة المسحورين .

### لامرتين

وأشهر من هذين بين مساحير الشرق فى القرن التاسع عشر كما تقدم «ألفونس لامرتين» مؤلف قصة روفائيل التى ترجمها الأستاذ الزيات وترجمها قبله الأستاذ نجيب الحداد باسم «غصن البان فى رياض الجنان» على عادة الأدباء يومئذ فى تسجيع العناوين .

كان لامرتين يهيم بمحاكاة بيرون فى رحلاته ومغامراته ، وقد رحل بيرون إلى بلاد اليونان واشترك فى حرب استقلالها ومات بالحمى على أرضها ، ولم يبق



للشاعر الفرنسى دور يتصل بتراث اليونان فليكن له إذن دور يتصل بتراث الأرض المقدسة ، ومن هنا نجمت الفكرة فى سياحته الشرقية وأسفرت عن رحلة الشرق البليغة التى تحسب من آيات الوصف الشعرى فى كتب السياحات .

وأوشك لامرتين أن يقيم فى الشرق ويقطع الصلة بينه وبين الغرب لولا أن تحولت الأحوال فى وطنه فآثر الرجعة إليه ، مزوداً بسخرية اللادى ستانهوب !

ومنذ رحلته إلى لبنان سنة ١٨٣٢ أصبح الكلام عن لبنان والاشتهار بالاطلاع على قضيته مما يروقه ويرضى غروره ، فلما أثارت الدول مسألة الشرق الأدنى وتقسيم تركة الرجل المريض - أى الدولة العثمانية - شعر الفرنسيون بهزيمتهم فى المضمار أمام المناورات الانجليزية وراحوا فى برلمانهم ينحون على حكومتهم وفى طليعتهم لامرتين الذى كان - مع شهرته بالشعر - من خطباء البرلمان المعدودين .

وقد حفظت له خطبة مشهورة فى نصف سنة ١٨٤٦ حمل فيها على الوزارة ولم يتورط فيها مع الساسة فى استغلال تهمة التعصب الدينى أو فى اتخاذ جانب المسيحيين أو الدروز ، بل رجع بالحوادث إلى دسائس الدول وقال إن الفريقين متحدون وكانوا على وفاق ومودة فى ظل الأمير بشير الشهابى الكبير ، وأن هذا الأمير لم يخطئ فى غير شىء واحد وهو جنوحه إلى إبراهيم بن محمد على ، فغضبت عليه حكومة الباب العالى من جراء ذلك وجاءت الدول بعد جلاء إبراهيم باشا عن سورية فأسقطت هيبة الأمير بشير» .

وكان فى تلك الخطبة معارضاً لسياسة فرنسا فى القطر المصرى لأنها صرفت همها إلى تأييد محمد على وكان من واجبها أن تؤثر بالعناية أناساً من عقيدتها استظلوا بحمايتها منذ أجيال متقادمة وأحسوا باهتمامها من أيام لويس القديس إلى أيام لويس الرابع عشر .

وقد كان لامرتين يعنى بذلك أن «الحكومة الملكية» عرفت واجبها قبل الثورة الفرنسية لأنه كان ملكياً وكانت أسرته كلها ملكية مما عرض أباه للسجن فى أيام الثورة وعرضه هو للهجرة من بلاده ، وأعجب أطواره فى الأدوار السياسية المسرحية أنه بعد كل هذا رشح نفسه لرئاسة الجمهورية فلم يظفر بأصوات تذكر فى معركة الرئاسة .

إلا أن الكلمة التى تذكر له فى تلك الخطب هى قولته المشهورة «إن الدول تزعم أنها تريد أن تخلق من جبال لبنان سويسرة أخرى فى الشرق ، فاحذروا أيها السادة أن تجعلوها بولونيا أخرى» .

يريد أن يقول إن مطامع الدول قد تجنى على أبناء لبنان كما جنت على البولونيين فمزقت بلادهم بين آل رومانوف وآل هابسبرج وآل هوهنزلرت ، وقد كانوا يحسبون أنهم من حماية فرنسا الأدبية فى حرز أمين .

### ورينان...

وقد كان رينان كذلك من مساحير هذا الشرق المظلوم ، وكان سحر الشرق عليه شديداً قاسياً لأنه جرده من مسوح الكهان ومن نعمة الإيمان ، إن صح ما رماه به أقطاب ذلك الزمان .

مات أبواه وتكفلت به أخته هنرييت ، واشتغلت بالتعليم لتنفق على تعليمه فى مدارس اللاهوت .

ولكنه جنح فى دراسة اللغات السامية ليطلع على الكتب المقدسة فى أصولها العبرية والعربية ، فقاده الاطلاع إلى الشك وقاده الشك إلى المجاهرة بآرائه التى أنكرها رجال الدين فى زمانه ، وأوشكت مسألته أن توقع فى القصر الامبراطورى مشكلة بيتية بين نابليون الثالث وزوجته أوجينى ، فإنها كانت تناصر رجال الدين فى حربهم للفيلسوف المارق وكان هو يناصر رينان ويود لو أقامه فى كرسى من كراسى الأستاذية بالكوليج دى فرانس .

غير أن الإمبراطور لم يشأ أن يستهدف لسخط المتدينين من جراء فلسفة رينان ، فأقصاه عن فرنسا فى بعثة علمية إلى سان ، واغتبط رينان بهذا الاقصاء ، لأنه كان مشوقاً إلى دراسة اللغات الفينيقية والارامية بين آثارها فى بلادها ، وكان يسره أن يطوف بين قرى لبنان ويسمع أسماءها التى تحمل أصولها العريقة وتدل بالباء على بيت وبالعين على عين وبالرش على رأس ، وتعيد إلى بحمدون ذكرى بيت حمدون ورشيمة ذكرى رأس وعمشيت ذكرى عين شيت ، فضلا عن التين والزيتون فيها وهما من أقسام القرآن الكريم .

وابتلى فى لبنان بلية أخرى لم تكن له فى حساب ، لأن صحبة أخته الدائمة أثارت غيرة زوجته فانقضت عليهما هنيهة ثم عادت مغضبة مستريبة ، وأضافت بحماقتها مصيبة أخرى من المصائب التى جرتها عليه حماقات الناس ، وحماقته هو فى بعض السهوات والبدوات .

لقد كانت هنرييت فى سنها تكاد أن تحسب أما له كما كانت أما له بالتربية والتثقيف ، وكانت تعاونه فى الكتابة وتصحح له الأخطاء وتجتهد اجتهادها فى



تنقية أسلوبه من مسحة فولتير وأقرانه المتهكمين المستخفين ، ومن رآها ظن أنها أكبر من شقاء العيش وهى تسعى لرزقين وتترحل بين فرنسا وبولونيا وبين بولونيا وبرلين لتجمع من مرتب المربية الخاصة رزقاً تعين به التلميذ المطرود والأستاذ المحروم .

ولكنها الغيرة وسخافتها لا تعرف الحكمة فلا تستريح ولا تريح ، وقد أصيبت هنرييت بالحمى وماتت بها فى لبنان ، وحار الأطباء فى توصيف تلك الحمى وتسميتها بأسماء الأمراض البدنية ، ولكنها ولاريب تحمل فى طيها جرثومة من جراثيم الفكر مع أدواء الأجسام .

ومن فجائع هذه المحنة أن العدوى سرت إلى رينان فأفاق من غيبوبته ساعة وسأل عن الشقيقة التى ظن أنها تتماثل للشفاء ، قبل أن يغيب عن وعيه ، فعلم أنها فارقت الحياة .

### بعد خمسين سنة

وبعد خمسين سنة زار أمين الريحانى ضريح هنرييت واستعاد ذكرياته يوم زاره قبل ذلك بخمس وعشرين سنة فقال :

«إننى أنقل من مذكراتى فى تلك الأيام وأترجم من مقال لى باللغة الإنكليزية كتبته إلى مجلة بوكمان النيويوركية .

«منذ ربع قرن ، أى يوم حججنا ، كان أهل عمشيت يعجبون لمن يجىء بلدتهم سائلا عن ضريح هنرييت رينان شقيقة ذلك الفرنسى الكافر ، وقد اجتمعنا يومئذ بكاهن يسكن البيت الذى أقام فيه رينان وتوفيت فيه هنرييت ، وكتب فيه قسما من حياة يسوع ، فقلنا لأول وهلة إنه ولا شك حر شجاع ، وأنه لا يأبه بالذكريات .

«وقد قيل لنا إنه متخرج من الجامعة الشهيرة التى درس رينان نفسه فيها من سان سلبيس بباريس ، وأنه كاهن عصرى أى مهذب حر الفكر والضمير كما يراد من اللفظ فى تلك الأيام .

«ولكنه على عصريته وعلى ما فى بيئته كان يدعو رينان كافراً ولا يخفى احتقاره حتى للزائرين المعجبين به ، وكأنه تخصص فى دروسه اللاهوتية بعلم المقاصد والنيات .

«وقال ذلك المحترم إن أحد أغنياء اليهود استخدم رينان لكتابة كتابه الذى لا يستحسنه غير اليهود أنفسهم والكفار من المسيحيين . وقال كذلك إن شقيقة رينان التى كانت تلبس لبس الراهبات وتزور الكنيسة مع أهل القرية ساعدته على تأليف ذلك الكتاب فهى وإياه فى الكفر سواء» .

والبلية الكبرى على ضحايا الفكر أن رينان متهم عند اليهود لأنه قال عن أنبياء الساميين ما لا يرضاه يهودى من المؤمنين ولا من الكفار .

## سرك يا جمال الدين

فماذا نقول ؟ أنقول إنه سر جمال الدين الذى رماه بالكفر فلاحقته تهمة الكفر فى الحياة وبعد الموت ولم يسلم منها فى وطنه ولا فى الشرق الذى استدرجه بسحره ولم يعرف لجمال الدين حرمته فيه ؟! .

لا نقول ذلك ولا يقوله جمال الدين . ولكننا نقول إن السحر أقوى من المسحورين ، وأن هؤلاء المفتونين بالشرق لم يستغربوه إلا لأنهم هم أنفسهم غرباء مستغربون ، وإنما يرى المرء نفسه فيما حوله كما قيل .

وقد أشرنا إلى لمحة من غرائب لامرتين الذى رشح نفسه لرئاسة الجمهورية وهو ملكى بالوراثة والفكرة والشعور ، وأشرنا كذلك إلى لمحات من غرائب الأميرة الساحرة المسحورة فإذا كانت غرائبها تلك بحاجة إلى المزيد ففى وسعك أيها القارئ أن تزيد عليها غرائب أبيها الذى كان رساما وطباعاً ومخترعاً ونبيلاً من الأسر البريطانية العتيقة وجمهورياً يعلن مذهبه برئاسته لجماعة الثوريين طلاب الانقلاب فى المعقل الملكى القديم !

وما كان أقوى السحر الشرقى فى وجدان رينان ؟! .

وما كان أقواه فى «عم» شرشل المغمور ؟! .

إنهم غرباء تسوقهم غرابتهم إلى استغراب الشرق واستغراب كل شىء ينظرون إليه فى مرآة نفوسهم .

ولسنا نكره أن يوصف الشرق بالغرابة عنه هؤلاء الغرباء . . .

ولكنه يستطيع أن يحتفظ بغرائبه دون أن يصبح فرجة من تهاويل الخيال ، وأن يحبس فى القفص من أجل ذاك .

وإلا فالمستشرق «المستغرب» هو الغريب . .



# وجودية أو عدمية *

كابوس يستحق نصيبه من السخرية وافياً كما تلقاه على يدى الفيلسوف صاحب الكوابيس . أو صاحب الألاعيب : براتراند رسل .

ذلك هو كابوس الوجودية التى يلغط بها فلاسفة المقاهى فى الحى اللاتينى وهم الآن يتكلمون بلغة «الإنذارات النهائية» فى مناقشاتهم ، أو مناوراتهم مع الخبراء الثقافيين من زمرة الشيوعيين .

ما هذا اللغط بالوجود والوجودية ؟ ما لهؤلاء القوم يُبدئون ويعيدون فى حديث وجودهم ؟ هل يريدون إثبات الوجود المشكوك فيه ؟ هل هم موجودون أم معدومون يحلمون فى ساحة العدم بالوجود ؟

كابوس وأى كابوس !

وقد نظم الفيلسوف لهذا الكابوس نشيداً بالفرنسية قال فيه :

«فى صحراء شاسعة الأطراف

«فراغ واسع من الرمال .

«ذهبت أبحث وأنقب .

«ذهبت أبحث عن الطريق المفقود

«الطريق الذى أبحث عنه ولا أصل إليه .

«تتيه روحى هنا وتتيه هناك .

«فى كل جهة من الجهات الأربع .

«وكلما بحثت لم أجد شيئاً .

«فى ذلك الفراغ الذى ليس له آخر .

«ذلك الفراغ الذى لا ينقطع .

«رمال ، رمال ، رمال .

«تلك الرمال الخادعة الخائفة .

«تلك الرمال الرتيبة المحزنة .

* أخبار اليوم : ١٩٥٤/٦/١٩ .

«تمتد إلى نهاية الأفق .

«وأسمع صوتاً فى النهاية .

«صوتاً صاعقاً يحلو أو حلوا يصعق .

«ثم يقول لى ذلك الصوت .

«أتحسب أنك روح ضائع .

«أتحسب أنك روح .

«أنت غلطان .

«أنت لست بروح .

«أنت لست بضائع .

«أنت عدم . .

«أنت غير موجود . . .»

وهكذا طمح الفيلسوف طموحه مرة واحدة . فهو فيلسوف وروائى وشاعر ، وهو موسيقى أيضاً . . لأن قصيدته هذه قابلة للإيقاع والغناء .

والكابوس فى هذه القصة راكب على أنفاس «وجودى» يريد أن يثبت مذهبه .

ومذهبه أن الألم والخجل يخلقان الشعور فى الضمير ، ومتى خلق الشعور فى الضمير فالضمير موجود وصاحبه غير معدوم .

ومن تجارب الكابوس أن يبتلى هذا الوجودى بالتعذيب فى معسكرات النازية وأن يجيعه فى روسيا . وأن يدخله فى الشيوعية الصينية ليتهم فتاة بريئة مخلصة بتهمة الخيانة والجاسوسية لعله يشعر بالخجل وتبكيت الضمير فيثبت لنفسه أنه موجود .

ثم يعود إلى باريس فتنعقد المجامع ترحيباً بالمجاهد العائد من ميادينه . ويدعى إلى مجمع من هذه المجامع فيقبل وهو ينظر إلى مكان ضيف الشرف ، فإذا فيه غراب ! وإذا الغراب ينعب له بصوت يسمعه المؤتمر كله .

«فلسفتك يا هذا ليس لها وجود .

«فلسفتك يا هذا عدم .

«إنها ليست بشىء . . .»

وينهض فزعاً على صدى هذا النعيب فيسمع نفسه يصيح : ها أنت أخيرًا تتعذب ها أنت أخيراً موجود .

ولكنه حلم ، بل كابوس ، لا يذكره مدى حياته ولا يجرى ذكر الفلسفة له على لسان .



# كوابيس الكبراء*

## كابوس أيزنهاور*

ليست الكوابيس كلها مسلطة على النفسانيين والفلاسفة المفكرين ، ولكنها تتسلط كذلك على ذوى السلطان ، فلا يسلم منها ستالين ولا أيزنهاور ، ولا يفلت منها أصحاب الحلول وأصحاب المقترحات والمشروعات فى سبيل السلام .

ويحلم الرئيس أيزنهاور فيرى فى الحلم كابوس الوفاق الثنائى بين مكارثى وملنكوف .

مكارثى «يكتسح» ميدان الانتخاب بعد سنة فيرتقى إلى كرسى الرئاسة وينتقل بالسياسة الغربية من محاربته الشيوعية فى روسيا إلى محاربتها فى قلب الديار الأمريكية .

ولا تمضى غير فترة وجيزة حتى يتم الوفاق بين رئيس البيت الأبيض ورئيس الكرملين ، وحتى تنقسم الكرة الأرضية شطرين بين الرئيسين .

فآسيا وأوربة الشرقية من نصيب الكرملين وملنكوف .

وأوربة الغربية وأفريقية والقارة الجديدة من نصيب البيت الأبيض ومكارثى .

ولا يسمح لأحد فى الشرق أن يشتم رأس المال أو ينكر انتساب كولمبس كله بآبائه وأجداده إلى عنصر الصقالبة .

ولا يسمح لأحد فى الغرب أن يشتم الصعاليك أو ينكر انتساب بطرس الأكبر إلى الأمريكيين الأصلاء .

ويكتفى بحزب واحد فى الديار الأمريكية هو الحزب الجمهورى دون غيره .

ويقال فى تسويغ هذا التوحيد أنه الدافع الوحيد لخطر الحرب العتيد . المقبل من قريب أو بعيد .

* أخبار اليوم : ١٩٥٤/٦/١٩ .

وتبقى مشكلة اليابان .

وليست اليابان مشكلة إلا إذا بقيت دولة قوية مسلحة . فلتجرد إذن من السلاح . ولتقسم إذن قسمين ، ولتكن جزيرة «هكايدو» من حصة الروس ولتكن بقية الجزر من حصة الأمريكيين .

ويصبح من حق كل رئيس أن يسمى خلفه ويختاره على غراره . فيسمى مكارثى رئيس الجمهورية من بعده . ويسمى ملنكوف أولياء عهود بعد ولى عهده . وتتعاهد الأمم ثلاثاً وأربعين سنة إلى تتمة القرن العشرين . أن تصون الميثاق وتنكس الأعناق لبطلى الوفاق .

ولا يخلو الكابوس من كابوس آخر فى باطنه ، كابوس داخل كابوس ، يخيف الخائفين فيعتصمون من الكوابيس الصغار بالكابوس الكبير .

وواحد من هذه الكوابيس الصغار كابوس لئيم يخيل إلى البيض أن السود قد ثاروا بهم يذبحونهم فى القارة السوداء ، فلا يبقى أبيض ولا أسود فى القارات الخمس إلا وهو يلمس رأسه بين كتفيه .

## نعوذ بالله

نعوذ بالله فى الختام ، نعوذ به فنحمده على السلامة والسلام .

وخير ما نشيع به الكوابيس كلمة تكشف سرها وتوضح سحرها ، وإن كانت لا تدفع شرها !

والسحرة الأقدمون والسحرة متفقون فيما تراضى به الشياطين . . .

والسحرة الأقدمون هم المشعوذون .

والسحرة المحدثون هم «الكهنة» النفسانيون .

وكلهم يقولون إنك تروض الكابوس إذا عرفت اسمه ، ووعيت طلسمه ، وأحسنت نداءه ، ولم تجهل دعواه ودعاءه .

وقد يعرف القارئ اسم الكابوس فيضحك ، وقد يكون الضحك من اسم الكابوس أول علامات الشفاء وآخر علامات الداء .



إنهم يسمونه فى لغات الغرب بالساحر الراكب أو العفريت الذى يدوس ، ويجعلونه مرادفاً لكلمة التفريخ أو واللقاح ويحسبونه من العفاريت التى تغرم بالنساء ولاتتعرض للرجال إلا من قبيل الخطأ أو خبط عشواء .

وكانوا يسمونه فرس الليل . ويشيرون به إلى الركوب والجماح . ويضمنونه من المعانى ما يباح وما لا يباح .

ومن فخر اللغة العربية أن اسم الكابوس فيها أصح الأسماء . وأنه لا يتجاوز الواقع إلى هراء كذلك الهراء .

وقد يضحك القارئ من تفسيرات الكابوس كما يضحك من أسمائه ، ومن علاقاته بضحاياه ونسائه .

فالحق أن القوم فى الغرب قد أمعنوا فى تفسيره وتوسعوا فى أوصافه وتعليل أسبابه وأصنافه . وبلغ فى عملهم به أنهم استطاعوا توليد الكابوس بالوسائل الصناعية وأمكنهم أن يسلطوا تيار الكهرباء على مراكز الدماغ فيخلقوا فيها الكوابيس على أشكال وألوان . والعينان مفتوحتان !

والحق أنهم سبقوا الفيلسوف صاحب الكوابيس إلى علاج أبطال القصص والروايات ، ومنهم هملت الذى كان يحسب الموت كالنوم ويخاف من الموت أن تتخلله الأحلام المزعجات .

لكنهم هزلوا من فرط الجد حتى حسبوا من أسبابه أنه نذير بالخطر المقبل . وهاتف من هواتف الغيب .

وهنا أيضاً يحق للشرقى أن يفخر على القوم لأنه يعلم ما يجهلونه من أسرار النوم ! .

فليس مع الكابوس «رؤيا صادقة» ولا نذير صحيح من أسرار النوم فى الحكمة الشرقية .

ولا يعلم الغيب إلا الله .

وأما الكوابيس فإنها من فعل الشياطين .

ونعود إلى الفيلسوف فنقول إنه لم ينس ذلك فى أقاصيصه عن شيطان الضواحى ولكننا ننتهى الآن من كوابيسه فلا نبتدئ بشياطينه . . .

ونعوذ اللّه . . .

وقد أنصف الفيلسوف الرياضى فلم يرحم الفلاسفة الرياضيين ، ولم يتركهم فى أمان من عهد أفلاطون إلى عهد أدنجتون .

وينام الفيلسوف الرياضى فيحلم بالأرقام تناديه وتناجيه : الواحد يصيح فخوراً : أنا الأول ، وأنا الأصل الأصيل .

والاثنان تقاطعه فتصيح شامخة : لا زيادة ولا نماء إلا باثنين اثنين .

والثلاثة تقول : أنا عدد الربات الثلاث ربات الأقدار وربات النعمة والبركة والكمال .

والأربعة تقول : أنا العدد الذى تتقابل به الأمثال وتتعادل فيه الأعدال . .

والخمسة تقول أنا اليد التى تعد وتحسب ، والستة تقول إنها عدد التمام ، والسبعة تقول أنها العدد المقدس فى الأرض والسماء .

ثم يحاول الكابوس أن يسكتها عند العشرة فتهجم الأحد عشر قائلة : أنا عدد الرسل الأمناء بعد يهوذا الخائن ، وتهجم الاثنا عشر قائلة إنها أم الحساب عند أم الرياضة فى أرض بابل ، وتهجم الثلاثة عشر قائلة : حذار أن تغفلونى فألحقكم بالشؤم والنحس والبلاء .

وتنتفض الأعداد فإذا الفرديات والزوجيات رجال ونساء ، أو إذا هى ذوات أجنحة تطير بباب الرياضى المسكين فيلوذ منها بالفرار . ويطلع عليه النهار .



# قبلة الجزائر بين مكة وباريس *

## ثورة الجزائر

ثورة الجزائر خبر اليوم الذى يملأ الصحف وتهتز به موجات الأثير .

وإن هذه الثورة لدرس رادع للمستعمرين وعبرة نافعة للمعتبرين . ورجاء صادق لليائسين .

كان المؤرخ الفرنسى ووزير الخارجية فى وقت من الأوقات – جبرائيل هانوتو – يقول قبل خمسين سنة إنهم استطاعوا أن يحولوا قبلة التونسيين من مكة إلى باريس .

وجاء بعده من يقول إن التجربة نجحت فى الجزائر أضعاف نجاحها فى تونس ، لأن الجزائريين دخلوا فى الجنسية الفرنسية وفتحت لهم أبواب البرلمان الفرنسى وأصبحوا يتعلمون لغة الدولة الحاكمة قبل لغتهم العربية ، ويفرض عليهم فى السنوات الأولى أن يلقبوا تلك الدولة بلقب الأم الحنون .

وكنا نحن فى أسوان نبصر بالعين خطأ الوزير السياسى الفيلسوف وضلاله فى سياسته وعلمه وفلسفته ، قبل أن نميز الخطأ من الصواب فى مباحث السياسة والتاريخ .

كنا فى مدرسة أسوان نتطلع إلى العمل الوطنى الذى نسمع عنه كثيراً ونتعجل الوقت الذى نضطلع فيه بشىء منه بالغاً ما بلغ من القلة والضآلة ، وكانت المدارس فى البلدة قليلة ومدرستها الأهلية التى أنشأها أحد فقهائها باسم المدرسة الإسلامية فقيرة إلى المساعدة والتشجيع لضعف مواردها وقلة الإقبال عليها ، فاتفقنا نحن فئة من تلاميذ المدرسة الأميرية على التطوع بالتدريس فى فصولها التحضيرية ، وكان رائدنا وسابقنا إلى هذه المهمة اللواء الصالح حرب رئيس جماعة الشبان المسلمين ، فإنه توظف قبلنا فاستطاع أن يضيف المساعدة بالمال إلى مساعدته التى كان يؤديها بالتدريس فى أوقات الفراغ .

* أخبار اليوم : ١٩٥٤/١١/١٢ .

وأذهب إلى المدرسة الإسلامية ذات يوم لأداء حصتى فأجد هناك شاباً غريباً فى كسوة غريبة لم أر شبيهاً لها قبل ذلك ، فقد كان يلبس كسوة التشريفة الأوربية وعلى رأسه الطربوش المغربى وفى إحدى يديه قفاز ويده الأخرى عارية بغير قفاز . فعرفنى به صاحب المدرسة وعلمت منه أنه الأمين الخاص لنبيل فرنسى من الأسر العريقة ، وأنه صحبه فى رحلاته الشرقية ، وقد صحبه فى هذه الرحلة الشتوية إلى أسوان .

كان الكلام بالفرنسية أيسر على هذا الشاب من الكلام بالعامية الجزائرية فضلا عن العربية الفصحى ، وكانت تربيته منذ طفولته فى باريس حيث عرف النبيل من سنوات الدراسة الباكرة ، وكانت له فترة فراغ فى الصباح وفترة أخرى بعد الظهر يقضيهما حيث شاءغير متقيد بصحبة النبيل ، فترك الفندق وملاهيه ذلك اليوم ليبحث عن معهد إسلامى أو مدرسة إسلامية يطلع فيها على خبر من أخبار الإسلام فى هذه الديار ، وطفق بعد ذلك يتردد على المدرسة كل صباح ويبذل لصاحبها ما استطاع من المعونة والإرشاد .

لم يكن هذا تصديقاً فلسفياً أو تاريخياً لنبوءة هانوتو وأمثاله ، ولكننا رأينا خطأ الفيلسوف المؤرخ رأى العين قبل أن نرجع إلى الفلسفة والتاريخ .

للفرنسيين مستقبل واحد فى الجزائر طال بهم الزمن أو قصر .

مستقبلهم أن يعيشوا فيها جزائريين أو يرحلوا عنها مطرودين ، وأما أن تصبح الجزائر الفرنسية فى حضن فرنسا – أمها الحنون – فلن يطول الرضاع أكثر من خمسين سنة !

وهذه صيحة الطفل الرضيع على أمه الحنون .

إنها لدرس للمستعمرين وعبرة للمعتبرين ورجاء لليائسين .



# الممثل كين فى الفلسفة الوجودية *

لو ترك «سارتر» الفلسفة وحصر جهوده فى الرواية التحليلية لما تبددت هذه الجهود فى الكلام الفارغ الذى يسمونه بالوجودية ولا شىء فيه من الفلسفة على الإطلاق ، ولا مصير له غير الإهمال بعد سنوات ، إن لم يكن قد دخل منذ اليوم فى ظلال الإهمال .

لقد كانت المسرحية التى وضعها عن الممثل كين أو خلل العبقرية تحفة قليلة النظير فى الأدب التمثيلى الحديث ، ولا يستطيع المنصف أن يوازن بينها وبين تحفة إسكندر دوماس إلا حكم بالرجحان لهذه الثمرة العصرية من ثمرات التحليل والدراسات النفسية .

لا شىء من الحب فى الرواية ولا فى حياة العبقرى أدموند كين . ولكنها الكبرياء فى نفوس الجميع ، وأولهم الملك جورج الرابع الذى ظهر فى رواية دوماس باسم ولى العهد حرصاً على العلاقات السياسية .

ومن الواضح أن الممثل كين يزاحم الملك على معشوقته مرضاة لكبريائها .

ولكن المستغرب أن تهيم هذه المعشوقة النبيلة بالممثل المنبوذ مرضاة لكبريائه ، وهى فيما يبدو من ظاهر الأمر تبتذل كبرياءها بمغازلته وتهين كرامتها بالمناوبة بينه وبين الملك وزوجها النبيل .

لكنها غرابة ظاهرة ليس إلا .

أما الواقع فهو أن الكبرياء تعمل هنا ما لم تعمله فى غرام كين بالمعشوقة النبيلة لأنها تشبع غرور المرأة كله حين يقال إنها تضرب الممثلات فى ميدانهن ، وأنها «أنثى» قبل كل شىء .

وتبرز هذه المعانى فى المساومة بين كين والمعشوقة النبيلة على مكافحة الغيرة «العلنية» .

* أخبار اليوم : ١٩٥٤/١٢/١٨ .

فالنبيلة تهدده باستقبال ولى العهد فى مقصورتها والإقبال عليه بالمغازلة الفاضحة التى لابد أن يلحظها الجمهور .

ويجن جنون الممثل فيسألها عن شروطها فلا تشترط عليه شيئاً إلا أن يعانق على المسرح ممثلة غير الفتاة الجميلة «أنا دنبى» .

وإن المسكين ليعلم أن المغازلة فى مقصورة علنية بين المعشوقة النبيلة وولى العهد لا تكون إلا دوراً من أدوار التمثيل .

ولكن هذا الذى يعنيه دون الحقيقة ، فهو لا يرضى كبرياءه إذا كانت النبيلة تحبه فى سريرتها ويرى الجمهور منها أنها تغازل ولى العهد على منظر منهم ومن صاحبها كين .

فلا كبرياء فى هذا الحب المسرحى ، بل هو إذلال ومجاهرة بالإذلال فى غير مجاملة .

وعلى هذه الوتيرة تجرى مناظر الرواية كلها وتنكشف العواطف الإنسانية بين يدى سارتر من وراء المظاهر الفنية والطبيعية .

ويريد سارتر مع هذا أن يحسب فى الفلاسفة ولا يسره أن يخرج من عدادهم ليلحق بزمرة الروائيين .

اضحك معى أيها القارئ غير مأمور .



# تاريخ المستقبل

وددت أعرض على القارئ تلك المقارنة البديعة التى جاءت بها يراعة «ونتوورث دى ويت» Wintworth De Witt الفيلسوف المتخصص لدراسة أبيقور لولا أنها مقارنة تستلزم منا تمهيداً طويلا فى تصحيح أغلاط التاريخ عن «أبيقور» الفيلسوف المظلوم الذى أصبح اسمه علماً على «الشهوانية» ولم يكن بين الفلاسفة من هو أبعد منه عن الشهوات .

يقارن دى ويت بين أبيقور والقديس بولس إمام المسيحية فى القرن الأول بعد الميلاد ، ويعزز مقارنته بالنصوص وشواهد الحياة ، ويدع القارئ وهو على يقين من سخافة التاريخ وطهارة الفيلسوف المظلوم .

ولو اتسع المقال للتمهيد والتصحيح على هذه الوتيرة لكانت هذه الأعجوبة سيدة الأعاجيب بين واردات الأدب الأخيرة ولكنها أسلم وأوضح حيث تأتى بعد تمهيدها الملائم ، ومع تصحيحها المطلوب .

ونحن نستبدل بها هذه الخاتمة عن كتاب فى تاريخ المستقبل . . . فربما كان الكذب على تاريخ المستقبل أقل كثيراً من كذب المؤرخين على الماضى البعيد ، أو على الحاضر القريب .

وأشهد بعد هذا أن الكتاب الأخير عن تاريخ المستقبل جد صارم لا يأتيه الهزل من بين يديه ولا من خلفه .

غير أننا معشر الشرقيين سنضحك منه قبل أن نطويه ضحكة الرضا ، وسيضحك منه معشر الغربيين ضحك الاستخفاف ويتمنون له التكذيب من الغد لأنهم لا يملكون فى أمره غير هذا الضرب من الأكاذيب .

يتحدى الكتاب مصير الإنسان ويستند فى نبوءاته إلى الإحصاء وأطوار التقدم حسب الحقائق التى يعلمونها اليوم ، أو الحقائق من طراز ١٩٥٤ .

ويقول عنه العلامة أينشتين ! «إننا خلقاء أن نشكر هاريسون براون على هذا الكتاب الذى يبحث فيه أحوال الإنسان كما تتكشف اليوم للناظر المثقف الجلى النظر» .

ويشفق المؤلف على قرائه من جد العلم فيمزج فصوله بالشعر ، ويخص الشعر الشرقى بقسط غير قليل ، فهو يفتتح الفصل الأخير بأبيات الخيام التى يقول فيها :

«آه يا حبيبى . ليتنا نضع أيدينا مع القدر على أداة هذه الدنيا الحزنة فنحطمها بدداً ونعيدها على هوانا نشأة أخرى» .

ويختتم الفصل بأبيات تاجور التى يصف بها العالم الإنسانى كما يتمناه :

«وحيث العقل لا يخاف والرأس مرتفع

«وحيث المعرفة طلقة من قيودها

«وحيث الدنيا لم تتمزق أشتاتاً ولم تنفصل بجدرانها الضيقة حول الأوطان

«وحيث الكلم ينطلق من أعماق الصدق الصراح

«وحيث الجهد يبسط يديه صوب الكمال

«وحيث العقل جدول لم يضل سبيله إلى صحراء العادات

«وحيث البصيرة تمضى بهديك إلى مجال من الفكر والعمل أوسع وأجدى

« . . . إلى ذلك المصير . . . إلى تلك السماء الحرة أيقظ أمتى يا أبتاه . .»

غير أن العقدة كلها فى الطريق قبل هذه النهاية

وفى الطريق يقول : «المتنبئ العلمى» إن الحضارة الصناعية ستنهار . . .

تنهار لأنها تخلق السلاح

وتنهار لأنها تخلق النزاع بين الأمم والطبقات

وتنهار لأنها تستنفد المعادن التى لا غنى عنها لتسيير الطاقة والانتفاع بقواها

وتنهار لأنها أول هدف للمتقاتلين من المعسكرين

وتنهار لأنها تمسخ الإنسان وتصوغه فى قالب الآلات والمصنوعات

هذه حضارة تنهار ولا فرار لها ولا قرار

فما الحضارة التى تخلفها مع الزمن ، ويقوم عليها عمار الأرض . وتأمن عواقب الفناء» .

قال ونرجو له الصدق فيما قال :

إن الحضارة الآتية . . .

إن الحضارة الباقية . . .

هى الحضارة الزراعية كرة أخرى

ولا بد أن يضحك الشرقيون والغربيون راضين أو ساخرين ، فقد لبثوا مائة سنة يسمعون أن الحضارات جميعاً صائرة إلى الصناعة والتصنيع ، ويعلمون أنه رأى العلم وأنها نبوءة الواقع الملموس باليدين .

وبقى اليوم بعد قول الخيام وقول تاجور بيت واحد يقوله أبو العلاء :

تقفون والفلك المحرك دائر — وتقدرون فتضحك الأقدار



# من الشمال إلى اليمين*

## يوميات وسنويات

قرأت فى يوميات الأستاذ مصطفى أمين أن الثورة الروسية تتمخض عن ثورة أخرى فى داخلها مناقضة لها فى وجهتها . وأنه قرأ مقالات الصحفية العالمية مرجريت هيجنز فاستوقفه منها أن البلاد الروسية «على أبواب تطور ضخم . . وأن مالنكوف بدأ يسمح للأبناء بأن يرثوا الآباء . وأن إعلانات ضخمة فى شوارع موسكو الآن تقول : ابن بيتاً لك . ليملكه أولادك من بعدك . . ثم هناك إعلانات ضخمة تشجع العمال على التأمين على حياتهم لمصلحة أولادهم . .» .

ومضى الأستاذ مصطفى فى تعقيبه على مقالات الصحفية العالمية فقال إن النظام الشيوعى «كان يسهل الطلاق . وفجأة بدأت حملة فى صحف روسيا ضد الطلاق تمهيدا لتقييد هذه الإباحة التى كانت تجعل الطلاق مسألة سهلة كشراء تذكرة دخول السينما» .

قال : ومن قراءة التحقيقات الصحفية الأخيرة عن الحياة فى روسيا أشعر أن هناك ثورة فى داخل الثورة وأن الشيوعية فى طريقها إلى تطور جديد . .» .

## قديمة...

وهذا فى جملته خبر قديم مسبوق !

ولا ضير على الأستاذ مصطفى فى هذه (التشنيعة) الصحفية ، لأن الخبر مسبوق فى الأخبار الجديدة نفسها ، وقبل سنة من هذا التاريخ نشرت الأخبار الجديدة تحقيق وكيل الصحف المتحدة بعد ثلاثة أشهر قضاها فى البلاد الروسية ثم خرج منها يقول : (إنه وقف على أخطر تطور فى روسيا للثورة البلشفية . . . إن فى روسيا الآن ثورة تتطور فى هدوء وبسرعة وقد أمَّ هذه الثورة الجديدة فى روسيا مديرو المصانع وأساتذة الجامعة والعلماء والمهندسون وضباط الجيش ورؤساء العمال) .

* أخبار اليوم : ١٩٥٥/١/٨ .

وإنى أذكر هذا الخبر لأننى عقبت عليه فى حينه قائلا إن الكرة الأرضية فى العام المقبل تدور يميناً وأن خبر الوكالة الصحفية المستعجل ليس بالخبر الحديث عندنا لأننا توقعناه قبل ثلاث سنوات ، فقلنا فى رسالتنا عن فلاسفة الحكم فى العصر الحديث أن كارل ماركس مخطئ فى تقديراته وأن الصناعة الكبرى لا تؤدى إلى النتيجة التى تقعر غاية التقعر فى الإنباء بها وإنما تنشأ (طبقة غير طبقة أصحاب الأموال وغير طبقة الصناع والعمال تشرف على أدوات الإنتاج ولا يتأتى الاستغناء عنها فى المجتمع القائم على الصناعات الكبرى . وهذه هى طبقة المديرين الفنيين . . وخبراء الصناعة وما إليها . . ) .

## ومن عهد لينين

ولم يشعر زعماء الشيوعية اليوم - فقط - باستحالة تطبيق الخرافة الماركسية فى عالم الواقع ، بل بدأوا يشعرون بها حين بدأوا بالتطبيق ، فأباحوا للفلاح فى المزرعة الجامعة أن يقتنى بيتاً يعيش فيه مع عائلته ويربى فيه دواجنه ويتركه لذويه الذين يحلون فى عمل المزرعة محله . واضطر مديرو المصانع إلى مضاعفة الأجر على حسب القطعة وزيادة الدخل السنوى على حسب المقدرة والبراعة ثم وجدوا أن الإغراء بزيادة الأجر والدخل لا يحفز النفوس إلى مضاعفة الجهد والمثابرة ما دامت الزيادة لا تجلب لهم شيئاً غير الضروريات . فأطلقوا العنان لتجارة الترف والزينة وأصبح من معروضات الدكاكين عندهم قوارير للعطر وأكسية من الحرير والمخمل تباع بمئات الجنيهات .

## الأطوار النفسية

والأطوار النفسية أهم جداً من هذه الظواهر المادية ، لأنها جميعاً تدل على إفلاس الماركسية من الداخل ، وتنبئ عن أحداث المستقبل التى لا مناص منها طوعاً أو كرها وعلى هوى الدولة أو على غير هواها .

ومن هذه الأطوار إقبال الملايين على الكنائس واستطاعة هذه الكنائس أن تجمع النفقات لترميم ما تخرب منها أثناء الحرب والثورة من تبرعات المصلين دون غيرها لأن الدولة كما هو معلوم لا تنفق على المعابد شيئاً من خزانتها ، بل تنفق من الخزانة على المعاهد التى تفتحها وتديرها لمحاربة الدين .

ومن هذه الأطوار تحول الأدباء من أدب الآلات إلى أدب النفوس البشرية ، وإعلانهم ذلك غير مرة فى السنة الأخيرة ، كما لخصناه فى أخبار اليوم منذ سبعة شهور .



وأخطر من ذلك أن «العقد النفسية» التى طالما سمعنا من الماركسيين أنها مرض لا محل له فى المجتمعات الشيوعية قد أخذت تنفجر فى أخلاق الجيل الجديد وعاداته على نحو لا نظير له فى البلاد التى يسمونها ببلاد رأس المال .

فالخلاعة والتأنيث فى ملابس الشبان والعربدة الفاضحة والولع بالمقامرة قد أصبحت اليوم من موضوعات العظات الدورية فى الصحف والنشرات . وقد عادت الدولة إلى السماح للآباء بالإشراف على سلوك أبنائهم وبناتهم وتبليغ المراجع الحكومية عن الشذوذ أو التهتك الذى يلاحظونه عليهم ، ومن أخبار هذه التبليغات أن أبا وجد فى حقيبة بنته مجموعة من الصور الشائنة والمناظر الشاذة فأسلمها إلى الإدارة المختصة وأدى الشهادة عليها فكان جزاء البنت - وهى فى السابعة عشرة - أنها أودعت دار الإصلاح ! وأبيح للشرطة والآباء معاً أن يبلغوا شبهاتهم عن كل شاب يخرج إلى الطريق بالملابس المزركشة والألوان الصارخة والأصباغ التى لا تجمل بالرجال .

## وباء جارف لا مرض متفرق

والواقع أن العقد النفسية فى البلاد الشيوعية وباء جارف لم يبد من أعراضه حتى الآن إلا القليل .

ولا يمكن أن يكون غير هذا فى بلاد يحسبون فيها أن التعبيرات النفسية حيلة يخترعها المالكون لزمام الإنتاج الاقتصادى فى كل مجتمع قديم أو حديث .

فإنهم على هذا الحسبان يفرضون التعبيرات النفسية فى الأدب والفن ويظنون أن الحكاية كلها حديثة فى مكان حيلة قديمة من مخترعات رأس المال .

ومن قراراتهم أن «الفواجع» أو التراجيدية لا موضع لها فى المجتمع الشيوعى ، لأنها كانت لازمة فى المجتمعات التى يتخبط فيها الفرد مع المجتمع على غير جدوى وبغير رجاء .

ومن قراراتهم أن الأسلوب الطبيعى Naturalism فى الفن والأدب لا موضع له كذلك فى مجتمعات الشيوعيين ، لأن هذا الأسلوب أسلوب تأمل وحنين إلى الماضى حيث لا ينبغى التأمل والحنين .

ومن دواعى الحيرة للمؤلف أن الفواجع ممنوعة وأن المضحكات لا تباح إذا كان مدارها على نقد المجتمع ونقد ولاة الأمور ولم يكن هدفها المقصود بطلا من أبطال

البرجوازية أو رأس المال . وكل شىء ميسور إلا أن يضحك الإنسان بالأمر وعلى وفاق أحكام المراسيم .

وقد أصدرت إحدى المطابع «الأميرية» كتاباً نفدت طبعته من مؤلفات «بتروف» فأصابها التوبيخ والتحذير ولم تغن عنها المعاذير .

وشاع الرياء فى تلفيق الشعور الطبيعى فاستحقت الرضى والتشجيع رواية مدارها على بطل «مثالى» يحن إلى المصنع قبل انقضاء أيام الإجازة ويترنم بمحاسن المكنات التى غابت عن نظره كما يترنم العاشق بمحاسن ليلاه .

مثل هذا الكبت الحيوانى لخوالج النفوس الحية لن يكون له أثر معقول غير العقد النفسية التى يقولون عنها إنها مرض من أمراض البرجوازية ورأس المال!

لا جرم ينتحر ثلاثة من الأدباء النابهين هم مايكوفسكى وإيسنين وباجرتسكى ويموت آخرون فى ريعان الشبان ومنهم من يقترن موته بالريبة وتحوم الظنون فيه على الغيلة أو الانتحار .

ولا جرم يتعدى الكبت شعور الكاتب والفنان إلى شعور القارئ العزيز الذى يحس كابوس النفاق جاثماً على صدره ولا يستطيع أن يغالط نفسه فيزعم لها أنه يقرأ تعبيراً صادقاً عنها فيما يقرأه من أدب المكنات والآلات .

ولا نحسب أن الصيحة التى صاحها سيمونوف وأهرنبرج والشاعر فردوسكى والشاعرة أولجا بدجولتز – كانت تنطلق فى روسيا ويسمح لها بالانطلاق لولا تفاقم الخطر وبلوغه مبلغ التهديد والإزعاج الذى يوقظ الغافلين ويصدم تلك الأدمغة الملتوية فتدرك على الرغم منها أن الأدب من طبيعة الإنسان لا من حيلة محتال ولا من تدبير العمل أو رأس المال .

**عرض زائل**

ونحن لا يخامرنا الشك لحظة فى استحالة بقاء الشيوعية كما وضعها كارل ماركس وإنجلز وسائر هذه الزمرة من دعاة القرن التاسع عشر ، لأنها مجموعة أغاليط لا تقبل البقاء ، وكلما مضى على تجربتها عام ابتعدت من قواعدها وأهدافها على على السواء ، ثم لا تزال تبتعد وتبتعد حتى لا يبقى منها إلا ما ينكر الماركسيين وينكره الماركسيون .



منذ بضع سنوات كتبت أقول إن الشيوعية لا تصمد للتجربة عشر سنوات .

فلما أعلنوا فى الصين أنهم دانوا بالشيوعية جاءنى من العراق سؤال نشرته مجلة الاثنين ينتفخ بالجهل والتحدى ويسألنى مرسله : ألا تزال على اعتقادك أن الشيوعية لا تصمد للتجربة عشر سنوات ؟

والذى يخدع أمثال هذا السائل فى الحركات الاجتماعية أنهم يأخذونها بعناوينها وأسمائها ، ويحكمون على «حسن» بأنه «حسن» لأن اسمه حسن بشهادة أبويه وشهادة الأوراق الرسمية وشهادة من يناديه !

والشيوعية التى أعلنت فى الصين إنما هى بقية الثورة الصينية التى نشبت سنة ١٩١١ قبل الحرب العالمية الأولى وقبل الظروف الداخلية والخارجية التى استفاد منها لينين وزملاؤه فى إقامة الحكومة السوفيتية .

ولو لم تحدث فى روسيا ثورة ولم يقم بعدها انقلاب لتسلسلت الحوادث من ثورة سن ياتسن إلى ثورة «ماوتسى» وما يشبهها ، ثم لا تلبث أن تستقر على الغرار الصالح للبقاء بعد ذهاب الرغوة وانجلائها عن المحض الصريح .

وسيرى المخدوعون بأعينهم أنه لا ثورة الروس ولا ثورة الصين تسفر غدا عن شيوعية ماركسية ، وأنها فى هذه اللحظة لا تثبت من الماركسية مقدار ما تنفض وتهدم . . فلم تبق من الماركسية اليوم نظرية واحدة يعتمدها الثقات من أساطين الاقتصاد ، وليس فى وسع دعاة الروس أن يدلوا الناس على نظرية منها وضعت موضع التطبيق فأسفرت عن نجاح .

وإن غداً لناظره قريب .

**ولكن..**

ولكننا نقول مع الأسف الشديد إن أعداء الشيوعية يخدمونها حيث يتخاذل عنها الأصدقاء والأتباع .

فهؤلاء «الديمقراطيون» الذين يزجون بأصابعهم فى كل مكان بحجة الخوف من الشيوعية إنما يختنقون الأنفس ويخلقون فيها الريبة ويحاربون العدوان المنظور بعدوان واقع يكظم الصدور وينفى عنها الأمل ذات الشمال وذات اليمين .

وكأنما الدنيا كلها قد أصبحت وليس فيها غير اللون الأحمر يصبغ به الشيوعيون كل شىء لأنهم يحبونه ويصبغ به «الديمقراطيون» كل شىء لأنهم يحذرونه ، وتعمى العيون إذن عن كل لون وعن كل نور غير هذا البلاء المحيط .

إن أعداء الشيوعية يحسنون صنعاً فى محاربة الشيوعية كلما عرفوا للأمم الشرقية حقوقها ولم يتخذوا من خوفهم حجة للعدوان والافتيات على تلك الحقوق ، ذلك الافتيات الذى لا يجدى شيئاً غير إثارة المخاوف فى قلوب الآمنين .

ومن مصائب الدنيا أننا نعالج خوف الشمال بخوف اليمين ، ثم نقف بينهما حائرين لا نملك إلا أن نتمثل شاعرنا الحكيم :

إذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أعلك ما شفاكا

## المذاهب والتعليم

فى هذا الأسبوع تلقيت خطاباً من «معلم» يسألنى فيه رأيى عن تدريس المذاهب الشيوعية فى مدارسنا ، يسألنى بصفة خاصة عن فصل من كتاب عنوانه : «مشكلات فلسفية» مكتوب عن الاشتراكية الماركسية بقلم الأستاذ «عبده فراج» على نمط لا يرتضيه المعلم صاحب الخطاب .

وأحب أن أقرر قبل الإجابة عن السؤال أننى أدعو إلى تدريس المذاهب جميعاً للمتقدمين من الطلاب ولا أقيد هذا التدريس بقيد غير التحقيق العلمى والتنزه عن الدعاية .

وأقرر كذلك أننى لا أعرف وسيلة لمقاومة الكتاب غير الكتاب ، فإن الخطأ لا يثبت على النقد الصحيح ، ولا سبيل إلى القضاء عليه أقوم من سبيل الإقناع .

وعلى هذا الميزان – ميزان التحقيق العلمى – أعرض ذلك الفصل الذى يسألنى عنه كاتب الخطاب .

رجعت إلى ذلك الفصل فوجدت كاتبه يقول : «إن الاشتراكية وجدت أكبر دعاتها فى كارل ماركس الفيلسوف اليهودى الألمانى الذى قدر لمذهبه أن يطبق بنجاح فى روسيا الحديثة ليصبح أقوى ما أنتجه الفكر السياسى تأثيراً فى السياسة العالمية المعاصرة» .

ثم يقول : «إن ماركس كان متأثراً بفيلسوف مادى من تلاميذ هجل هو فورباخ الذى رفض فلسفة أستاذه الروحية واعتنق الفلسفة المادية . وكانت هذه منتشرة فى ألمانيا إذ ذاك بفضل تقدم العلوم الطبيعية الباهر» .



ثم يقول : «استعار ماركس المنطق الجدلى وهذبه وتأثر بما ذهب إليه هجل من وجوب التفرقة فى تفسير التاريخ بين الحقائق العميقة الهامة مثل رغبات الأمة وآمالها وبين الظواهر السطحية التافهة كالشخصيات التاريخية . .» .

ولم ينس الأستاذ أن يضيف إلى ماتقدم «أن نجاح النظام الاشتراكى فى روسيا يرجع إلى لنين ومواهبه الفلسفية العملية وأسلوبه الصلب المرن فى آن واحد وقد اضطر لأن يجارى الظروف الواقعية ويحيد أحياناً عن التفصيلات الماركسية» .

ثم يختم الفصل بكلمة عن نبوءات كارل ماركس يقول فيها إن كثيراً منها لم يتحقق وإن علة ذلك أن الرأسماليين يتبعون هم أيضاً منهجه فيزيلون أو يخففون فى نظامهم العوامل التى تدعو إلى تذمر العمال أو إلى انهيار الرأسمالية» .

والخطأ فى هذا كله كثير ، وفيه مصداق لما يعتقده من خوض الأكثرين عندنا فى هذه المذاهب على غير معرفة واستيعاب معتمدين على الملخصات أو القشور التى لا يفهم منها مذهب قط على وجه مفيد ، ولو كان كاتب هذا الفصل على علم بما يكتبه لما قال فى مقدمته عن «إنجلز» شريك ماركس إنه «أحد رجال الأعمال الإنجليز» وهو ألمانى صميم أعرق فى الألمانية من كارل ماركس الذى ينتمى إلى بنى إسرائيل .

فمن الخطأ أن يقال إن مذهب كارل ماركس طبق بنجاح فى روسيا وإنما يطبق فى روسيا نظام لا فرق بينه وبين النظام النازى الذى كان يطبق فى البلاد الألمانية ، فالطبقة الحاكمة التى ينتمى إليها لنين وستالين ومالنكوف كالطبقة الحاكمة التى ينتمى إليها هتلر وجوبلز وريبنتروب ، وتجنيد العمال هو تجنيد العمال ، وإشراف الدولة هنا هو إشراف الدولة هناك . وليس فى جوهر الأمور فرق واحد بين النظامين فى غير الكلمات الجوفاء ، وقد تقاربت هذه الكلمات الجوفاء حين أصبحت العصبية السلافية ديناً للأمة الروسية تنتحل باسمه المفاخر لعظماء الروس وعلمائهم دون سائر العظماء والعلماء ، وتدخل الحرب فتسميها الحرب القومية أو الوطنية ، وتنسى القول بتفاهة الشخصيات التاريخية فتبنى لزعيمها ضريحاً لم يبنه القياصرة للأسلاف «المقدسين» .

ومن الخطأ أن يقال إن المذهب المادى ينتشر « بفضل تقدم العلوم الطبيعية الباهر» . . . فإن تقدم العلوم قبل عصر كارل ماركس لا يذكر بالقياس إلى تقدمها

فى عصر بلانك وهيزنبرج وادنجتون وجينز وأوليفر لودج ، ومنهم مع ذلك من تلهمه تلك العلوم أن الكون كله « فكرة رياضية » وأن المادة لم يبق منها إلا الحسبة التى تقاس بالرياضيات .

وقد وجدت المذاهب المادية قبل ألفى سنة حيث لا علوم طبيعية ولا علوم صناعية بل وجدت فى الهند التى تسمى مهد الفلسفة الروحانية ، ونشأت مدرسة كارفاكا carvaka قبل عصر بوذا والفلسفة الجينية ، وخلاصتها أن العلم كله علم الحواس وأن الأثير الذى يسمونه أكاسا Akasa غير موجود لأنه غير محسوس ، وأن المتعة بالحياة الدنيا غاية الأحياء ، وعصفور اليوم خير من طاووس الغد الموعود ، وإذا انحل الجسم لم يبق عقل ولا عاقل ويستوى فى ذلك الحكماء والجهلاء .

وتقدمت الفلسفة المادية فى بلاد اليونان على الفلسفة الروحانية أو المثالية فى تاريخها وترتيبها ، وظهر بين العرب الجاهليين من يقول كما جاء فى القرآن الكريم « إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين » . . ومن يقول : « . . ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر »

وليس فى وسع باحث فى العصر الحاضر أن يزعم أن الفلاسفة الماديين أكثر أو أكبر من الفلاسفة المثاليين . وهذه الفلسفة المادية الجدلية نفسها لا يوجد فى العالم فيلسوف معدود من دعاتها المؤمنين بها . ولا استثناء لروسيا الشيوعية إلا فى أسلوب المخاتلة والمداراة .

أما أن نبوءات كارل ماركس لم تصدق لأن الرأسماليين قاوموها فذلك غير صحيح وإنما الصحيح أنها لم تصدق لأنها تناقض الواقع مناقضة القطبين المتقابلين ، وخلافاً لما قال قد رأينا البلاد التى سلمت منها البلاد المتقدمة فى الصناعة الكبرى والتعليم ، وأن نسبة انتشار الشيوعية عكسية على حسب التأخر والجهل والإهمال فأسلم الأمم الأوربية من الشيوعية هى أكثرها صناعة وثقافة ومعرفة بالحقوق ، وعلى نقيض ذلك سائر الأمم التى تعرضت من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب . . ولم تغلب الشيوعية حتى اليوم أمة بعيدة من جوار روسيا وسلطانها المتحكم فيما حولها ، ولم تغلبها الشيوعية إقناعاً بل غلبتها بحكم ذلك الجوار وذلك السلطان .



ولن نذهب بعيداً فى الاستطراد إذا قلنا قياساً على ذلك إن زيادة فى العلم بالشيوعية زيادة فى العلم بأخطائها وخرافاتها . وأننا لا نعرف وسيلة لبيان حقيقتها خيراً من الأمانة فى تعليمها . فإن وجد بعد ذلك من يتمادى فى لجاجاتها فليس هو بصاحب فكرة أو صاحب مذهب ولكنه صاحب غرض يساق إليه أو يؤجر عليه ، ومثل هذا لايضيرنا تعليم المذاهب على اختلافها بالنسبة له ، لأنه على الجهل أو على العلم مسوق إلى حيث يساق .

## وردغطائها

وعندنا كلمة ورد غطائها فى سيرة أخرى من سير الشيوعية والشيوعيين مع كاتب هذه السطور .

والكلمة خطاب من أحدهم ينكر فيه أشد الإنكار أن الذين يخصون كاتب هذه السطور بحملاتهم الهزيلة شيوعيون يتعصبون للشيوعية فى تلك الحملات ، ويكاد يقسم أنهم يبغضون الشيوعية أو أنهم على الأقل لا يعطفون عليها .

وليكن صاحبنا هذا صادقاً كما يشاء وليكن زملاؤه أعداء للشيوعية لا ينكرون أنها خطر على المجتمع ولا يعطفون عليها .

مليح . وقل كذلك صحيح .

فكم كلمة مدح وجهوها إلى كاتب هذه السطور مكافأة له على خدمة المجتمع وجهده فى حمايته ولو أغضب الشيوعيين المؤمنين والمأجورين المسخرين ؟

أليس فى جهاد ثلاثين سنة فى هذا الميدان ما يستحق كلمة مدح أو تقدير إذا كانت هذه الطائفة حقّا تحمد هذا الصنيع ولا تحقد عليه ؟

والا إيه ؟

كلمة مدح واحدة إن كانوا صادقين ، وندركهم قبل أن يبذلوها أو يضنوا بها فنقول لهم إننا نحول هذه الكلمة مقدماً إلى الجهة التى يختارونها ، وعليهم أن يشفعوها بالعنوان فلا تمضى ساعة بعد وصولها إلينا حتى نبعث بها إلى الممدوحين المختارين .

# ألوان التأليف فى الغرب *

أما فى هذه المرة فهو كشكول كبير بمعنى الكلمة وبأكثر من معنى الكلمة ، لأنه تصنيفة من الكتب لا يرتسم لها طابع واحد ولا تلتقى منها عدة كتب تحت عنوان واحد إلا بمشقة عظيمة ، ولكنها على ذلك يمكن أن تدلنا على اتجاهات واضحة فى فى الكتابة الأوربية منذ سنتين أو على اتجاهات واضحة فى السنة الرابعة والخمسين بعد التسعمائة بعد الألف للميلاد .

قحط فى القصة . نشاط فى الشعر . كثرة فى كتب الكشوف على أنواعها . عناية بدراسة النفسيات التى تشمل طبائع الأحياء من الإنسان إلى الحشرة إلى ما دون ذلك .

## قحط فى القصة

فانصراف القراء الأوربيين والأمريكيين عن القصة ظاهرة محسوسة مقدرة بالأرقام وعليها شاهدان من كلام النقاد ومن إحصاءات الناشرين . وكلاهما يدل على انحدار سريع فى الكم والكيف كما يقولون فى لغة المناطقة . أو انحدار سريع فى عدد القصص التى ظهرت وعدد النسخ التى وزعت منها وقيمة هذه القصص من الوجهة الأدبية والوجهة الفنية على السواء .

وكاتب هذه السطور أول من يتفاءل بهذه الظاهرة ، لأننى أحس من مبدأ الأمر أن أساس الإقبال على القصة كسل فى النفس وتقديم للتسلية على الذوق والفهم والشعور الصادق ، وأن جمهور القصة الشائعة هم طوائف الجهلاء وأشباه الجهلاء ومن يتخذون القصة بديلا من علبة السجائر أو تكملة لها عند الضجر من التدخين .

وفى القصة نوع رفيع - بل رفيع جداً فى بعض الأحيان - يكتبه عباقرة الفن وأقطاب البلاغة ، ولكنه يضيع بين القصص التى يطلبها الجهلاء وأشباه الجهلاء ، ويحسب قراؤه بالمئات حيث يحسب قراء المهازل والخزعبلات بمئات الألوف .

---

* أخبار اليوم : ١٩٥٥/١/١٥ .



وقد راجت قصة من القصص لأن امرأة متزوجة كتبتها لتذكر فيها علاقاتها وغواياتها ومقدمات تلك العلاقات والغوايات على علم من زوجها قبل النشر . وبعد النشر بطبيعة الحال .

ومثل هذه القصة لو تحولت إلى مناظر من الصور الشمسية الخليعة لصادفت من الرواج ما صادفته القصة المكتوبة وزيادة .

وإنه لغافل أو مخطئ من يقول إن القصة بدعة حديثة بين الفنون الإنسانية فإنها أقدم ما عرفه الأطفال فى المهود والعجائز حول مواقد الشتاء ، ولكن الأقدمين كانوا على شىء من الوقار فتركوها فى مكانها بين ألاعيب الأطفال وثرثرة العجائز . ومضت ألوف السنين ولم يبق من تلك القصص أثر ولم ينقص منها شىء يحس بنقصه ، لأنها تخترع من جديد على نحو واحد فى كل جيل ، ثم تعاد على النسق القديم .

ومنذ مائة سنة قيل ما قيل عن بدعة القصة فى عالم الفنون . فظهر منها ما ظهر واختفى ما اختفى ، ولم يبق من الظاهر المأثور إلا الذى يقرؤه طلابه لغير القصة التى فيه : يقرءونه للصور الشخصية أو للدراسات النفسية أو للقدرة على خلق المواقف والتعبيرات .

ثم ندر هذا النوع من القصص الرفيع ولا يزال يندر فى الأعوام الأخيرة ، فعسى أن تكون هذه الندرة مؤذنة بزوال سلطان الجهلاء والغوغاء على الفن والأدب والثقافة .

ويدعونا إلى التفاؤل أن الإعراض عن القصة يصحبه إقبال على موضوعات أخرى تجمعها كلمة جامعة التعريف بالحياة وبالعالم وبأسرار الأرض والسماء ، ومنها كتب الكشوف السماوية والتاريخية وكتب البحوث فى الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وكتب النفسيات والخصائص التى ركبت فى طبائع الأحياء .

وإذا كان هذا هو البديل فليس انصراف الناس عن القصة دليلا على إهمال العواطف والنفسيات . ولكنه دليل على إدراك هذه العواطف والنفسيات من طريق غير طريق التسلية وتزييف العاطفة بغرائز الشهوات .

## والشعر ينشط

ومن الدلائل الحسنة أن الشعر ينشط فى السنة الأخيرة ، وأن عوامل البناء فيه أكبر من عوامل الهدم والفساد .

رأى لا نجزم به ولا نتعجل بقوله على علاته . ونحب أن نعلقه على ما بعده حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود فى هذه الظلمات .

إن المجموعة التى بين أيدينا تختار مائة قصيدة من نحو عشرة آلاف قطعة لألف وستائة ناظم .

فالرأى الذى نراه يصدق على نخبة من هذه القصائد المختارة ، ولكننا لا ندرى شيئا عما وراءها من المئات المرفوضة والأسماء الخاملة . فلعلها من صنف آخر لا يشبهها فى نزعاتها وأساليبها ، ولعلها من هذا الصنف ولكنها تختلف بنصيبها من الجودة والإتقان . .

لا ندرى . .

وإن كنا نستطيع أن ندرى يقيناً أن اشتغال ألف وستمائة شاب بالنظم علامة على اهتمام لا شك فيه بالشعر وموضوعاته التى لا تشاركه فيها الفنون الأخرى .

ونقول ألفاً وستمائة «شاب» لأننا نرى فى المجموعة أسماء أناس ولدوا بعد سنة ١٩٣٠ ، ولا نرى فيها إلا القليل جدًا ممن بلغوا الشيخوخة وبدأوا بالنظم قبل الحرب العالمية الأولى .

فهذه النخبة إذن ترجمان صادق للنزعة الفنية وعلامة على روح جديدة فى النظر إلى الحياة ، وتتمثل هذه الروح فى العطف على الطفولة وفى العطف كذلك على السلف الذى باد أو كاد يبيد . ومن أمثلة ذلك قصيدة يقول ناظمها إنه يرثى للشيوخ الذين يسمعون كلام الأبناء عن فجائع الحرب الأولى كأنهم يتكلمون عن حرب طروادة ووقائع الرومان ، لأن كلامهم هذا ينتزع من حياة المجاهدين قطعة حية ليحيلها سمراً من الأسمار .

وموقفهم مما وراء الحياة لا يصدق عليه وصف اليقين والإيمان ولكنه لا يدخل فى باب اليأس المصطنع أو الهدم أو الهدم المعتسف أو قلة الاكتراث المقصودة فى الباطن باكتراث شديد .

وقد تصور هذا الموقف قصيدة فى المجموعة يقول ناظمها إنه لا ينتظر آخر النهار إلا أن يسمع منه قبل احتجابه صفوة بليغة مما حدث فيه واستحق الذكرى والتعبير . فإذا جاء الليل بعد ذلك فلتغمض العينان فى انتظار الأحلام ، أو على انتظار كيف كان .



روح طيبة لا ريب فيها

وكل ما نلاحظه عليها أنها تتفاهم مع البشرية كأنها فى ناد أو نزهة خلاء . وقد كان شعراء أمس ينظمون لإخوانهم من بنى الإنسان كأنهم أبناء بيت يشتركون فى أعراسه ومآتمه وفى وفره وفقره وفى سره وجهره ، فأما هؤلاء الشعراء الذين تتحدث عنهم البشرية عندهم «أعضاء ناد» لا يباح فيه للعضو المهذب إلا إشارة يلفت بها الزميل المذهب إلى منظر هنا أو صيحة هناك ، ثم يكتفى بالإشارة ولا ينتظر الجواب .

على أنهم ، بعد كل ما يقال ، خير من شعراء البشرية التى يفتح فيها المتكلم فمه ليقول إنه لا يهتم بمن يخاطبه وأن من يخاطبه لا يهتم به ، والسلام عليكم ورحمة الله . أو لا سلام ولا كلام ولا رحمة ولا لعنة ولا يحزنون ولا يفرحون .

قرأت للأديب الأستاذ أنيس منصور فى إحدى أسبوعياته القريبة كلمة يسأل فيها : هل يوجد فن بغير قواعد ؟

يا سيد أنيس . . ! لا يوجد فى الدنيا ولن يوجد لعب ، بغير قواعد معلومة للاعبين . فما ظنك بكرة القدم التى تلقى فى كل اتجاه ؟ وما ظنك بالشطرنج الذى ترمى حجارته أو تتغير بحجارة أخرى فى كل دور ؟ وما ظنك بالسباق من غير مجال ومن غير مسافة ومن غير ميعاد ؟

يا سيد أنيس . . . القاعدة مع من يطلب الفن بغير قاعدة أنك تصفعه على قفاه .

أما أن تناقشه مناقشة الجد فمن طول البال الذى قد يطلب من عباد الله الصالحين فى الصوامع ، ولست منهم ولا نحن بحمد الله .

نعم . ونحمد الله أيضاً لأن الشعر الجديد يفتح باب الأمل فى زوال الفوضى على الأقل ، فلا شىء غير الفوضى بغير قواعد وبغير حدود .

## كشوف الأرض والسماء

أما السيل الذى لا ينقطع بالقياس إلى هذه الجداول والقنوات فهو سيل الكتب التى تصدر عن الكشوف بأنواعها ، وهى فى هذا الزمن كثيرة الأنواع .

الكشوف السماوية والرحلات بين الأفلاك العليا .

والكشوف فى أعماق البحار ، والكشوف فى قمم الجبال ، والكشوف عن أصل المادة وجوف الذرة ، والكشوف الحفرية عن آثار الأقدمين وتواريخ الأمم والحضارات .

وبما وصل إلى مصر من هذه الكشوف الأثرية الأربعة مصنفات بأقلام المشتركين في الحفر أو الباحثين بين طباق الزمن القديم عن كنوز التاريخ .

منها كتاب جديد بقلم ليونارد وولى حجة الباحثين فى حفائر العراق عن تاريخ إبراهيم الخليل .

ومنها طبعة جديدة لهذا المؤلف لكتابه الذى جعل عنوانه «مدن ميتة وأناس أحياء» وتكلم فيه عن حفرياته فى مصر وإيطاليا وتركيا والعراق ، ومنها كتاب شامل عن فتوح الإنسان من أقدم الأزمان .

وأظرفها كتاب بعنوان «نفرتيتى عاشت هنا» للسيدة مارى شوب التى أغرمت بتل العمارنة وتعقبت «نفرتيتى» فى كل بقعة من الأرض خطرت عليها بقدميها .

وتلخيص هذه الكتب جميعاً تضيق عنه الصفحات ، ولكننا نعبرها بكلمة عن كل كتاب فى الطريق على سبيل التحية من قريب .

فالكتاب الذى أثبت فيه «وولى» لقاياه وأشار إلى لقايا الآخرين خليق أن يعلم المتحذلقين درسا فى أدب العلم فلا يسرع أحدهم إلى كل خبر من أخبار الأولين بالتكذيب والسخرية ، ويتواضع قليلا ليفهم أن الصحيح فى تلك الأخبار أكثر من صحيح أخبار هذا العصر الذى نعيش فيه .

والطبعة الجديدة عن كشوف مصر وإيطاليا والشرق الأوسط تعيد القديم من تواريخها جديداً تستغربه كأننا لم نسمع به قبل الآن ، وبعض ما فيه عن الأحياء أعجب من حكايات الموتى الخالدين والموتى المنسيين .

والكتاب الشامل عن فتوح الإنسان من أقدم الأزمان يسجل الكشوف التى لا شك فيها والكشوف التى يعتورها الشك الكثير ، وعلى حسب هذه الكشوف المشكوك فيها نعلم أن أمريكا وأفريقيا الجنوبية ومجاهل القارات جميعاً قد كشفت مرات قبل عصر كولمبس وفاسكودي غاما ولفنجستون ، ونعلم أن مصر قد كانت لها اليد السابقة فى معظم هذه الكشوف .

## رقص الصعيد فى إسكس Essex

وكتاب السيدة «مارى شوب» عن معاهد نفرتيتى ومألفها قصة حقة تنبض بالحياة ، وأسلوبه الذى اختارته السيدة تغلب فيه عواطف المرأة على تحقيقات العالمة



المؤرخة ، ولا سيما الأسلوب الذى تصف فيه حفلات الفلاحين وأغانيهم ومراقص الرجال والنساء فى الصعيد .

ولعلها جاءت فيه بمعلومة عن الرقص الصعيدى تعتبر عند المصريين من أهل الصعيد والريف خبراً مفاجئاً لم يسمعوا به قبل الآن .

ففى إحدى الحفلات التى أقامها الفلاحون لتوديع البعثة يرقص الفتيان رقصة تعجب الحاضرين والحاضرات ويقول أحدهم «رالف» متسائلاً :

– أين يا ترى شهدت هذه الرقصة بعينها ؟ أين رأيت هذه الخطوة بعينها وهذه الحركات من الذراعين بعينها !

ثم يذكرها بعد هنيهة فيصيح قائلا : عجباً ! إنها هى بعينها رقصة موريس التى رأيتهم يرقصونها فى اسكس .

قال أحد أعضاء البعثة واسمه جون : «أحسب أن موريس تصحيف لكلمة موريش Moorish .. وكأننا ننظر هنا إلى الرقصة فى منشئها الأصيل قبل وصولها إلى بلادنا من البلاد العربية ، وقد كان الأوربيون الأقدمون يطلقون اسم المغاربة أو الـ Moors على كل منسوب إلى العرب والمسلمين .

ثم قال : هذا أو ربما كانت بعض ما عاد به الصليبيون من الشرق إلى البلاد الإنجليزية !

وإنه لظريف حقاً أن يقدم الكشافون من إنجلترا للبحث فى أرض الصعيد فيكشفوا عن تاريخ بلادهم نفسها قبل تاريخ هذه الأرض المباركة ، ويتذكروا فتنفعهم الذكرى .. ولعلها تنفعنا أو تنفع الذين يرقصون منا .. ويحسبون أن كل خطوة يخطوها الراقصون على سطح الكرة الأرضية تستحق منهم أن يتعلموها ويتعبوا فى تعليمها .. إلا الخطوات على الأرض المصرية فى الجنوب أو الشمال .

## الذئب أرحم

ونختار من كتب الدراسات النفسية كتاباً قيما عن نفسية الحيوان ..

إذا وجدت بين يدى كتاباً عن النفسية الإنسانية وكتاباً عن طبائع الحيوان فقليلا ما يساورنى التردد فى البدء بالكتاب الذى يعنى شيئاً عن طبائع الحيوان .

ولا أمهد بالتقديم لأننى أفضل الحيوان على الإنسان ، وإن جاز هذا فى عرف المؤمنين بالتطور والقائلين باحترام الأجداد والأسلاف !

كلا ! لا أبدأ بطبائع الحيوان لأنها أفضل من خلائق الإنسان ، ولكنى أبدأ بها لأنها فى رأيى كالمسودة التى تكشف لنا المقاصد الخفية قبل التنقيح والتعديل ، وأبدأ بها لأنها أبسط من التركيبة الإنسانية التى تخدعنا ونغالط فيها أنفسنا ، ولا خداع ولا مغالطة فى طبائع الحيوان الأبكم ، من طريق الكلام أو غير الكلام .

صاحب هذا الكتاب الدكتور كونراد لورنز مرجع موثوق به فى لغة الطير والسباع وسائر الأحياء .

واسم كتابه خاتم سليمان ، لأن سليمان الحكيم كان يعرف لغة الطير بفضل هذا الخاتم المعجز . وصاحبنا يحب أن يزعم أنه قد عثر بنسخة من الخاتم القديم مفرغة فى قالب جديد يفهم أحياء هذا الزمن كما كان سليمان يفهم أحياء زمانه . . ولا فرق فى النهاية بين الفريقين .

وليس فى المختصين بدراسة من ينكر على الرجل دعواه ، فإنه يستطيع أن يناغى كل طائر بلهجته وخصائص نطقه فيجيبه الطائر ويصدع بأمره ، ويتفق أحياناً أن يفاجئه بعضهم وهو يخاطب الإوز سهواً بلغة البط أو البجع أو طيور الماء ، فيسرع معتذراً كأنه يخاطب إنساناً بلسان غير لسانه : عفواً . عفواً . . إنما أردت أن أقول كواك . . كواك . . !

هذا السليمان الحديث يروى لنا تجاربه مع الأحياء الضارية المخيفة والأحياء الوادعة الأليفة ، ثم يخرج منها بنتائج محققة لا موضع فيها للفلسفة ولا للمجاز والكناية ، وإنما هى صور حرفية لما رآه وأعاد رؤيته سنوات بعد سنوات .

من تجاربه أن الحمامة لا ترجع عن خصمها إذا حبست معه فى قفص واحد حتى تجهز عليه ، وأن السباع عامة تجرى على سنة غير هذه السنة فى صراعها مع أبناء نوعها ، فلا يعتدى الذئب على الذئب الذى يقاتله إذا استسلم له هذا وطأطأ أمامه بعنقه ليكشف له مقتله ، وهو قادر على قتله بعضة واحدة لو شاء .

ولكنه لا يشاء ، ولم يحدث قط شذوذ عن هذه السنة فى كل ما شاهده صاحب الكتاب أو سمع به من زملائه فى هذه التجارب العلمية .

ولا يجزم الرجل بتعليل لهذه العادة العجيبة ، ولكنه يقول على سبيل الترجيح إن سلاح الذئب مركب فى جسمه وإن كل تركيبة فى جسم الحيوان فإنها يراد بها حفظ النوع وتنتهى مهمتها إذا فرغ الحيوان من الدفاع عن نفسه . . ولو أن الوحش



قتل كل وحش من نوعه يستسلم له فى صراعه لانقرض النوع بعد بضعة أجيال وانعكست الآية من تزويده بذلك السلاح .

وهنا يسمح العالم لنفسه بقليل من الفلسفة ، فينتقل من عادة الحيوان إلى عادة الإنسان فى الحروب بين القبائل والأمم ، ويبدو له أن المصيبة مع هذا الإنسان أن سلاحه غير مركب فى بنيته وأنه يصنعه بيديه ليقتل به عدوه ، فلا يقتنع بالدفاع ولا يمنعه مانع أن يشتط غاية الشطط فى استخدام السلاح .

وسألته صحيفة نمسوية أن يكتب لها فصلا عن «التسليح بين الإنسان والحيوان» فكتبه وختمه بهذه السطور !

«سيأتى اليوم الذى تقف فيه الأمم فريقين متناجزين ويواجه كل فريق منهما فرصة سانحة للقضاء على عدوه . وسيأتى اليوم الذى ينقسم فيه نوع الإنسان بين معسكرين متناحرين . فهل تراه يسلك يومئذ مسلك الحمائم أو مسلك الذئاب ؟» .

وظاهر أن الأمل الوحيد مرتهن بحكمة الإنسان وإيثاره مسلك الذئب على مسلك الحمامة . .

وصدق أبو العلاء حكيم كل زمان حيث قال :

ظلم الحمامة فى الدنيا وإن حسبت     فى الصالحات كظلم الصقر والبازى

ولم يخل فى حكمته من محاباة ، لأنها على قول سليمان الحديث أظلم من الصقور والبزاة . . !

# قصور الفلسفة *

سنصحب القارئ فى هذه المقالة إلى «قصور الفلسفة» . . أو مباهج الفلسفة على قولين .

وكلاهما اسم كتاب واحد تبدل اسمه باختيار مؤلفه الكاتب الأمريكى «ديورانت» ومترجمه الأديب المصرى الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى .

وأمنيتنا للكتاب فى ترجمته العربية أن يصيب من الرواج مثل نصيبه بين قراء اللغة الإنجليزية ، مع حفظ النسبة بين تعدادِ قراء اللغتين .

كان ابن رشد يسمى الشارح وكفى ، فإذا قيل الشارح فلا حاجة إلى التسمية .

ولو أنك أردت أن تطلق على كاتب حديث لقب الشارح لكان «ديورانت» صاحب هذا الكتاب أحق الناس به غير مدافع ، لأنه يحسن الفهم والشرح والتلخيص على نحو نادر بين كتاب الفلسفة ، فيقبل القراء على كتبه بالألوف وعشرات الألوف ، وربما بلغوا مئات الألوف إذا صدقنا إعلانات الناشرين ، وهل تراهم يكذبون على عمال الضرائب إن كذبوا على القراء والنقاد ؟

وقد طبع أحد كتبه «قصة الفلسفة» فى طبعة جيبية فراج رواج القصص الغرامية أو البوليسية ، وفتح الأبواب لرواج الكتب المنوعة من هذا القبيل .

وأحسن الدكتور الأهوانى ترجمة الكتاب فى معانيه ومدلولاته ، وواجه مشكلة المصطلحات بأمانة مشكورة لأنه شفع الاصطلاح المترجم بالأصل الإنجليزى فمن رجع إلى الأصل لم يفته المعنى المقصود ، وقد يحاول مع المترجم محاولة ناجحة للتعديل والملاحظة والوصول إلى المصطلح المتفق عليه .

ونحن نبدأ من البداءة باسم الكتاب أو باسميه ، وهما الاسم الأول فى طبعته الخاصة والاسم الثانى فى طبعته العامة أو الشعبية .

فالاسم الأول Mansions of Philosophy ترجمة الدكتور الأهوانى بقصور الفلسفة ونحن نفضل كلمة الصروح على كلمة القصور فى هذا المعنى لأننا ألفنا فى التعبيرات العربية أن نستعير الصروح للمعانى المفهومة وللمبانى المحسوسة فلا يندر فى لغتنا أن يقال «بنينا صروح» المجد أو صروح العلم أو صروح الأخلاق» ولكننا لا نقول قصور المجد أو قصور العلم أو قصور الأخلاق ، وهذا فضلا عن التباس القصور بالتقصير والعجز ، إذ يسبق إلى ظن القارئ أن المقصود بقصور الفلسفة عجزها أو تقصيرها عن المطلوب منها .

والاسم الثانى Pleasures of Philosophy يغرى بكلمة «المسرات» ترجمة له لأول وهلة ، ولكن الدكتور الأهوانى أحسن بالعدول عن هذه الكلمة لأنها قريبة إلى الحسيات وأحسن كذلك بالعدول عن كلمة «اللذات» لأنها قريبة إلى الشهوات ، وفضل عليهما كلمة «مباهج الفلسفة» وهى فى الحق أفضل منهما لولا أنها أقوى من المعنى المقصود بها حين تنسب إلى الفلسفة على الخصوص ، فإننا نطمع كثيراً إذا انتظرنا من الفلسفة أن «تبهجنا» ولم نقنع منها بما دون ذلك ، وعندنا أن «متعة الفلسفة» أو «متع الفلسفة» أقرب إلى تصوير الارتياح المعقول من المطالعة الفلسفية ، وليس بالجديد فى كتبنا العربية أن نذكر المتعة والإمتاع فى الموضوعات التاريخية والدينية والأدبية ، فإن كتاب «إمتاع الأسماع» للمقريزى موضوع فى أخبار النبى عليه السلام .

وهنا وهناك كلمات نلاحظ عليها أنها لا تطابق معناها كل المطابقة ، ومنها أن المترجم نقل كلمة الأسباب الرديئة أو السيئة فسماها الباطلة (ص ١٦) ولا يلزم من السبب الردىء أن يكون باطلا وإنما يلزم منه أنه غير مستحسن وكفى ، ونذكر لهذه المناسبة أن موظفاً - لبقاً - غاب عن مكتبه يوماً وسأله رئيسه عن سبب غيابه فقال له إن السبب الصحيح هو السكر والعربدة والتأخر فى النوم إلى ما بعد ميعاد الدواوين ، ولكنه سبب ردىء وإن يكن هو السبب الصحيح . .

فالردىء يقابله الحسن ، والباطل يقابله الصحيح ، والفرق ظاهر بين ما هو حسن وما هو صحيح .

وكلمة الاختلاج أو كلمة الانتفاض أوفق إلى كلمتى الهوس الاهتزازى فى ترجمة Delirium tremens . . . وربما كانت كلمة الهوس أوفق بكلمة Obsession التى ترجمها الدكتور بالتلبس ولا دلالة فى التلبس عليها فإن كان المقصود عيباً أدبيًا ، ولم يكن مرضًا عصبيًا فكلمة «اللجاجة» أوفق الكلمات لما يراد من العبارة الإنجليزية لأنها يراد بها أن المرأة تلج فى غرض فلا تعدوه أو فى خاطر فلا تحيد عنه . .

* أخبار اليوم : ١٩٥٤/١/٢٢ .

## مباهج النحو والصرف

وعلى هذا الاختلاف بيننا وبين الأستاذ المترجم نود أن نستعير منه كلمة المباهج للمسائل النحوية الصرفية كما أستعارها للمسائل الفلسفية ، عسى أن تسوغ ملاحظات النحو والصرف على مقدمة الكتاب ولو بعض التسويغ .

فمن سهوات العارفين تلك الفلتات التى جاءت فى مقدمة الدكتور إبراهيم مدكور فكانت أحق شىء بالتنبيه ، لأنها من غرائب السهو إذا لم تكن فى السهو غرابة فى كثير من الأحيان .

يقول الدكتور : «إنا نتساءل إذا كان من اليسير أن يقدم له الدواء»

وجواب «إذا» فى هذه العبارة غير مذكور وغير مقدر ، ونحن قد نقول مع زهير :

بدا لى أنى لست مدرك ما مضى ... ولا سابقاً شيئاً إذا كان آتيا

فنفهم جواب «إذا» من الكلام السابق ، ويكون المقصود «إنه إذا كان المقدور آتيا فإننى لا أسبقه» .

أما أن نقول مع الدكتور «إذا كان من اليسير أن نقدم له الدواء فنحن نتساءل» فهو كلام لا يستقيم . . . بل يستقيم الكلام بغير حاجة إلى الجواب حين نقول : «نتساءل هل يقدم له الدواء» ؟ .

وقال الدكتور مدكور بعد ذلك : «فى كتاب مباهج الفلسفة جهد كبير وعرض شيق» .

والشيق هو المشوق أو المشتاق ، وليس الكتاب مشوقاً أو مشتاقاً ولكنه شائق يجعلنا نحن مشتاقين إليه أو شيقين .

وقال الدكتور : «وهو أديب بقدر ما هو فيلسوف» . . وتلك محاكاة عرفية للتعبير الأجنبى ، وإنما المألوف فى التعبير العربى «أن حظه من الفلسفة كحظه من الأدب» أو أنه «على نصيب سواء من الفلسفة والأدب» أو أنه «يحسن الفلسفة كما يحسن الأدب» . . ولا بأس بالمحاكاة الحرفية إذا لم يكن فى العربية ما يغنى عنها . فإن أغنت عنها العبارات العربية فهى أولى .

وحسبنا هذا من مباهج الفلسفة ومن مباهج النحو والصرف . مع رجاء المعذرة ممن يرفعون كلمة المباهج ويضعون فى موضعها المزعجات ، ولولا أننا لا نحب أن تتسع الفجوة بيننا وبين الغربيين لتركنا مباهجهم وأبعدنا مباهجنا عن الفلسفة واللغة ، ولكنهم إذا أفلحوا فى ترويج الفلسفة بين مئات الألوف من قرائهم فلنطمع فى بعض هذا الرواج عندنا ، ولتكن بسائط اللغة بيننا من المفهومات التى تدرك لها أسباب لا تتوقف على النحاة .



# الإمامة عند الإسماعيليين*

## من الجنوب الشرقى

أين نضع أسوان حين نتكلم عن الجهات الأربع ، أو عن الشرق والغرب ، كما نتكلم الآن ؟ .

ليست من الجنوب بالموضع الذى يقابل الشمال ، ولكنها إذا وضعت فى الجنوب «الشرقى» لم نبعد بها عن موضعها الصحيح .

ولقد عدنا من أسوان بالأمس وسمعنا فيها أحاديث الشرق والغرب ما يلحق «بالعالميات» على هذا المنوال ، ومنها حديث أغاخان .

كان «أغاخان» يحضر للصلاة فى مسجدها فيصلى قائماً مع الجماعة لأنه لا يستطيع الركوع والسجود .

وسألوه : هل ينوى حقًا أن يخلع ابنه على خان من ولاية العهد على الطائفة الإسماعيلية ؟ فنفى الإشاعة ، ونفاها من حوله بعض الأتباع .

وسألونى هناك سؤالا كهذا ظنوا فى كتابتى عن إمام الإسماعيلية وعن مفكراته ومساعيه أننى أعرف من شأنه ما يسوغ ذلك السؤال .

ولكن الواقع أن معرفة أغاخان ليست للإفتاء فى هذا الموضوع : موضوع ولاية العهد بين الإسماعيليين على التخصيص .

فالطائفة الإسماعيلية كلها قد نشأت لأنها أنكرت التبديل والتغيير فى ولاية العهد من أيام جعفر الصادق إلى أيام الخليفة المستعلى ونزار من خلفاء الفاطميين .

فقد كانت ولاية العهد لإسماعيل بعد أبيه جعفر الصادق فحولها جعفر إلى موسى الكاظم لأنه سمع أن إسماعيل لا يلتزم الأوامر والنواهى التى ينبغى أن يلتزمها الإمام ، فأبى أناس من أتباع جعفر أن يتبعوه فى هذا التحويل ، وقالوا إن الإمام يتلقى وحيه من الله وأن الله لا يجوز عليه «البداء» أى إبداء الرأى والعدول عنه إلى غيره .

* أخبار اليوم : ١٩/٢/١٩٥٥ .

وكذلك انشق حسن بن الصباح وانصاره على الفاطميين حين اختير [illegible] للخلافة بدلا من نزار .

فإذا اتبع أغاخان تقاليد أسلافه فليس من حقه أن يبدل ولاية العهد إن كان قد أعلنها قبل الآن .

إلا أن التأويل والتخريج لا يعدمان الحجج والذرائع بين فقهاء الأديان ، ولولا ذلك لما وقع الخلاف بين الإماميين والإسماعيليين ، ولا بين الإسماعيليين أنفسهم منذ أيام شيخ الجبل حسن بن الصباح .

وينوى أغاخان على ما علمت أن يبنى له قصراً فى أسوان وضريحاً لمثواه الأخير بعد عمر طويل ، لأنه أعجب بهوائها كما أعجب بترابها ، بعد ما عاينه من أمانته فى المحافظة على رفات الخالدين . . !

إن صح هذا فسوف تزاد معاهد الأديان كمية جدية فى أقصى الصعيد ، وسوف يقال إن البلد الذى اشتهر فى العالم بالإشعاع المعدنى سوف يشتهر بشعاع جديد من الأشعة الروحانية ، بين طائفة ذات خطر على الأقل فى أفريقية الشرقية وفى الهند : وهى طائفة الإسماعيليين .



## شرق .. وغرب*

● انتهى عصر الحقنة .

● لماذا أعتقوا مالنكوف ؟

### عصر الحقنة

مضى على ما نعتقد «عصر الحقنة» المنبهة أو «المفوقة» فى عصر النهضة الشرقية .

مضى عهد المفاخرة بالحق وبالباطل لاستنهاض الهمم واستثارة النخوة وتحريض العزائم على محاكاة الأجداد والتشبه بهم فى المجد العريق .

مضى عهد الحقنة التى نأمن أوائلها عواقب الإفراط فيها إذا عولنا عليها وحدها ولم تعول على قوة البنية ومناعتها .

أما اليوم فنحن فى عصر «الغذاء الصحى» الذى نختار منه للبيئة ما ينفعها وما تعتمد فيه على وظائفها الصحيحة وقدرتها التى لا شك فيها .

ولهذا يكفينا أن نقول اليوم ونحن على يقين أن ظهور الأديان فى الشرق دليل على اهتمام الشرق بالروحانيات وشعوره بالحاجة إليها ، وحسبنا اليوم أن نحافظ على هذه المزية التى لا غنى عنها فى عصرنا هذا على الخصوص ، لأنه العصر الذى أفرط ، غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالا ، فى عبادة الماديات .

أما أننا نحن الشرقيين قد احتقرنا المادة قديماً أو حديثاً فيفتح الله ثم يفتح الله .

هذه «ألف ليلة» وما شابهها من كتب الشرق تفيض بالماديات و «الحسيات» التى لا فرق بينها وبين الغرق فى بحار المادة والحس فعلا إلا أنها موقوفة التنفيذ .

وهذه أسماء «السيف» يقال إنها بلغت المئات فى اللغة العربية فلا يفهم من ذلك ، بداهة ، أنه دليل على «الموت فى حب السلام» .

---

* أخبار اليوم : ١٩/٢/١٩٥٥ .

كلا . ذلك دليل على الموت فى سبيل الحرب وليس بدليل على الموت فى سبيل السلام .

فلنعرف أنفسنا على حقائقها كما ينبغى أن نعرف جميع الحقائق .

وإننا لنعلم إذا عرفنا أنفسنا على حقائقها أننا نحب المادة وأننا أحببناها من قبل ، ولكننا نعلم كذلك أننا نهتم بالروحانيات ولا نزال مهتمين بها ، وفى هذا الكفاية للخلاص إذا عقدنا الرجاء على الخلاص من ربقة المادة بقبس من عالم الروح وعلى الله تحقيق الرجاء . . .

**ومفاخرهم أيضاً**

ومفاخر الغربيين أيضاً فى هذا الزمن عرضة للمناقشة وإعادة النظر إن لم تكن عرضة للتفنيد والإنكار .

إنهم يزعمون أنهم أصحاب العقول التى احتكرت فضيلة «الاختراع» والابتكار ، وينسون ألوف السنين من أجل مائة سنة أو مائتين على الأكثر فى تاريخ الاختراع الحديث .

فالواقع الذى لا نكران له أن المبتكرات الكبرى جميعاً من عمل الشرقيين ، وأنها هى المخترعات التى نقلت الإنسان فى الخطوة الأولى وهى أصعب الخطوات ، ثم تلتها خطوات أخرى قد تقل عنها فى صعوبتها ولكنها لا تقل عنها فى آثارها الباقيات .

من الذى روض الحيوان والنبات ؟ من الذى صنع السفن ؟ من الذى أقام البناء؟ من الذى نسج الثياب ؟ من الذى أبدع الآلات ؟

لقد قيل فى تعريف الإنسان إنه الحيوان الذى يستخدم الآلة ، وهو التعريف الذى يضع الحد الفاصل حقّا بين أرقى أنواع الحيوان وأسفل أنواع الإنسان .

وقد كشفت الحلقة المفقودة ، أو ما سمى حيناً بالحلقة المفقودة فى اصطلاح النشوئيين ، ووجدت فى بكين بقايا الحيوان المتوسط بين العجماوات وبين المخلوق الناطق ، ووجدت أمثال هذه البقايا فى وادى الرين بألمانيا وسميت ببقايا إنسان «النياندر» أو Meanderthal man .

هذه البقايا متقاربة فى الأعمار يذهب بها بعضهم مئات الألوف من السنين ويقنع بعضهم بعشرات الألوف .



والإنسان الشرقى هو الذى وجدت معه صنوف الآلات التى لم توجد مع إنسان فى القارة الأوروبية ، فهو صاحب فضل فى الاختراع الأول من أعرق الأصول .

وقد وجدت أصول الخيل والإبل فى القارة الأمريكية ولكنها لم تعرف كيف تستخدمها قديماً حتى عادت إليها بعد كشفها الأخير .

ولا خلاف على فضل الشرق فى مخترعات وادى النيل ووادى النهرين وشرق البحر الأبيض ، فليس للغرب إذن أن يستطيل بدعواه من أجل مائتى سنة ، وليس لنا نحن الشرقيين أن نستطيل عليه باحتقار المادة ولا سيما فى هذا الزمان ، فإن أكثر ما نستطيل به من ذلك «قصر ذيل» . . . وحسبنا أننا سبقناه إلى العناية بالروحانيات وسبقناه إلى القدرة على الاختراع .

فإذا جاء الغد وكتب لنا أن ننقذ العالم بروحانية جديدة من حاضرنا أو ماضينا فليقل يومئذ من شاء ما يشاء وربما أغناه حسن الفعال عن حسن الثناء .

**ومن الحضارتين إلى الكتلتين**

ولا بد من حديث الكتلتين بعد كل كلام يدور على الشرق والغرب فى هذه الأيام ، فإنه المدار الذى ينطوى فيه العالم بما رحب ويدور على عقبيه كما يدور إلى الأمام فى طريق المستقبل المجهول .

ذلك حديث الصراع بين زعماء الشيوعيين بعد موت ستالين وما سيكون له من الأثر فى علاقات الأمم وفى علاقات الحرب والسلم على التخصيص .

ولقد توسعت صحافة العالم فى التعقيب على هذه الأحداث الخطيرة وقلبت ما يعرض لها من الاحتمالات على جميع الوجوه من ناحية السياسة بين الدول الكبرى فلا ننوى أن نعرض لها من هذه الناحية فى هذا المقال .

ولكننا نراها أهلا للتعقيب الكثير إذا نقلناها إلى ذلك المدار الواسع الذى يرتبط بتاريخ الإنسانية ومصير العقائد الاجتماعية فى هذا الحين وبعد حين .

إن أحداث روسيا الحمراء تهدم مذهب كارل ماركس من أساسه ولا تدع منه إلا أنقاضاً تلحق بما تقدم من آثار الهدم والانتقاض فى تاريخ العالم .

فقد كان قوام المذهب كله على فكرة واحدة وهى أن القضاء على رءوس الأموال يبطل الاستغلال ويفضى بالأمم إلى مجتمع لا طبقات فيه ولا داعية فيه ، من ثم ، للتصارع على السلطان .

وهذه فكرة سخيفة نقضها الباحثون الاقتصاديون من وجهتها العلمية الواقعية منذ عشر سنين ، ولخصنا مباحثهم هذه فى كتابنا عن فلاسفة الحكم فى القرن العشرين الذى صدر منذ أربع سنوات ، فقلنا فى الصفحة الـ (١٠٦) من ذلك الكتاب إن حساب كارل ماركس اختل فى هذه المسألة وأنه «من هنا نشأت طبقة غير طبقة أصحاب الأموال وغير طبقة الصناع والعمال تشرف على أدوات الإنتاج ولا يتأتى الاستغناء عنها فى المجتمع القائم على الصناعات الكبرى ، وهذه هى طبقة المديرين الفنيين الذين حذقوا أسرار الصناعة أو حذقوا أساليب تنظيمها وتصريفها وترويج مصنوعاتها ، وهم بين مهندس وعالم طبيعى وخبير بتسيير العمل فى المكاتب أو نشر الدعوة» .

ثم مضينا فى التلخيص فقلنا إنه «متى تداعى رأس المال فتلك علامة من التطور الطبيعى الذى لا يرجع إلى الوراء ، وسينقضى عهد الشيوعية فى روسيا وفى غيرها فلا يلزم من زواله أن تعود الأمم إلى نظام رأس المال كما كانت قبل التجربة الشيوعية ، وإنما تبطل التجربة الشيوعية لتعقبها ولاية المديرين الفنيين حيثما وجدت الصناعة الكبرى ، فإن لم توجد فالبلاد التى تخلو منها تظل معلقة بدولاب من دواليب الأمم الصناعية الكبرى إلى أن تتمالك قواها وتتمكن من الوقوف على قدميها .

فالذى يحصل فى روسيا اليوم نتيجة معروفة للذين ينظرون إلى هذه المسائل العالمية فى مدارها الكبير الذى لا ينفصل من تاريخ الإنسانية فى جملتها ، وإنما هو صراع بين نفوذ الصناعة الكبرى ونفوذ الساسة والمستوزرين ، وما كان مالنكوف فى الواقع غيوراً على معيشة العامة والفقراء حين أراد تحويل الصناعة الكبرى إلى إنتاج اللوازم المعيشية وتيسير الضروريات للمحتاجين والمعوزين ، ولكنه أراد أن يهدم منافسيه بهدم الأساس الذى يقومون عليه وهو أساس الصناعات الثقيلة والمصنوعات التى تخرجها وفى مقدمتها الأسلحة الضخام والطيارات والدبابات والمصفحات وسائر هذه المصنوعات التى يهتم بها القادة العسكريون كما يهتم بها المهندسون والمديرون الفنيون .

فلا جرم إذن يتفق بولجانين وخروشيشيف سكرتير الحزب الأول والرجل الذى يدل اسمه أو لقبه الشائع بين الروس على أنه يترقى على عجل ويتقدم بسرعة كأنها سرعة الدواليب !

ومن الواجب أن يحسب بولجانين من المديرين والخبراء الفنيين قبل أن يحسب من القادة العسكريين ، لأنه كان مدير مصرف الدولة أو «الجوسبانك» الذى يتبعه



ثلاثة آلاف فرع فى البلاد الروسية ، وكان قبل ذلك مدير مصلحة التعمير التى تمت مهمتها على يديه فى ثلاث سنوات بدلا من السنوات الخمس المقررة فى المشروع ، ولا شك أن القوم قد اصطنعوا الدهاء إذ نقلوا مالنكوف من السياسة إلى إدارة المصانع الكبيرة ، لأنهم بذلك قد وضعوه على اللولب الذى يدور به حيث تدور الصناعات الثقيلة ، فيعمل لها فى مستقبله أو يقضى على نفسه بيديه .

### ولماذا أعتُقوه؟

والسؤال الذى يسأله الناس فى عجب : كيف نجا مالنكوف من الموت ؟ ولماذا سقط من أعلى مراكز النفوذ وهو بقيد الحياة خلافاً «للعرف المرعى» فى روسيا الحمراء ؟

وجواب هذا السؤال يهدم المذهب الماركسى من جانب آخر وهو جانب العلل التى تدفع بطلاب الجاه والسلطان إلى التنافس عليهما والاستئثار بهما فى كل مكان .

فعند كارل ماركس أن هذه العلل محصورة فى استغلال «الفلوس» . . . وعند الواقع فى روسيا كما فى غيرها أنها هى أهواء النفوس وأواصر القرابة وما إليها من وشائج الصداقة والوفاق .

فالرفيق خروشيشيف صهر مالنكوف ، والجنرال بولجانين زميله فى مدرسة كاجانوفتش منذ اختاره ستالين لتدريب الشبان المرجوين لخدمة الدولة فى المستقبل ، فكان مالكنوف وبولجانين فى مقدمة النخبة المختارين ، وربما كانت المودة «الأوثق» من هذه المودة بينهما أنهما اشتركا فى كراهة بريا والتآمر على إسقاطه وقتله وتفريق شمله .

والعجيب أن مالنكوف وصهره معا قد أفاضا فى الكلام على «المحسوبية» الشخصية فى الخطاب الذى ألقاه كل منهما على مؤتمر الحزب التاسع عشر ، فدلا بالكلام وبالعمل على أن أهواء النفوس ، أهم من حساب الفلوس ، حتى فى بلاد الروس !

# ماذا تعرف عن الوجودية والفوضوية ؟*

. . .

. . . قامت فى فرنسا فى القرن الماضى حركة سياسية سميت فى تاريخ الفلسفة باسم I'anarchismc بزعامة Piere Proudhon وتلخص سياسته هذه بالحرية المطلقة فلا جبر ولا إلزام على الأشخاص ولا دين ولا دولة ، بل تهدف الفوضوية إلى القضاء على الخضوع للسلطة سوى سلطان العلم والعقل . ولكن لم يقدر لهذا المذهب السياسى أى نجاح فضلا عن إهمال علماء السياسة لدراسته .

وفى فرنسا الآن حركة أدبية وأخلاقية واسعة هى المذهب الوجودى . ومن المعروف عن هذا المذهب أن كل إنسان يعمل ما يريد وفى عمله يجب أن يكون بعيداً عن الخيال ، وقد قال سارتر : «إننا نعيش فى المادة فيجب أن نخضع للطبيعة ونتركها تعمل ما تريد» .

ولشدة الشبه بين المذهب السياسى السابق والمذهب الأدبى الموجود الآن نسأل : هل هناك علاقة بين المذهبين ! وهل يمكن اعتبار الوجودية امتداداً للفوضوية ولكن فى ثياب الأدب . . .

إدوارد فؤاد

طالب بآداب القاهرة

قسم التاريخ

* * *

أحسن الطالب الأديب أولا فى تسمية الفوضوية والوجودية بالحركة . لأن الحركة أليق بهما من اسم المذهب الذى ذكره بعد ذلك ، وقد تكون الوجودية مناقضة للتمذهب بحكم قواعدها الأولى ، وهى تجتمع كلها فى التعويل على استقلال الفرد بآرائه وميوله ، وينتمى إليها - أى إلى الوجودية - أكثر من عشرين مفكراً لا يلتقى واحد منهم بالآخر إلا فى عرض الطريق .

* أخبار اليوم : ١٧/٣/١٩٥٦ .



وكذلك الفوضوية فى تشعبها وكثرة مدارسها وأقاويلها ، فإن بردون وباكونين وكروبتكين وأتباعهم فى روسيا وإسبانيا يختلفون بالرأى كما يختلفون بالعمل ، ولا بد من هذا الاختلاف بين القائمين بالحركة التى تهدم كثيراً ولا تتفق على خطط البناء .

وأحسن الطالب أيضاً فى التفرقة بين الحركتين ، لأن إحداهما سياسية وهى الفوضوية ، والأخرى أخلاقية أدبية وهى الوجودية ، وما بينهما من التوافق العرضى فإنما هو من طريق المصادفة السلبية ، حيث يتفق المنكرون للأسس القائمة فى بعض الأمور وإن تفرقوا فى الأسباب والأغراض .

بل تكاد الحركتان تتناقضان فى مبدأ أصيل يميز كلا منهما ويرجع إليه الفارق الأكبر بينهما .

فالوجودية تعول على استقلال الفرد كل التعويل ، ولا وجودية فى رأى من الآراء بغير هذا الاستقلال .

والحركة الكبرى من حركات الفوضوية - وهى معروفة بالفوضوية الشيوعية - تخرج الفرد من حسابها وتكاد تمحوه فى سبيل الجماعة . ولم تنشأ الوجودية إلا بمثابة احتجاج الفرد على طغيان الجماعة وتهوينها من شأن الاستقلال الفردى فى الحركات الاجتماعية ، ولا استثناء فى ذلك للديمقراطية ولا للاشتراكية المعتدلة ولا لدعوات التأميم والخطط المرسومة لتنظيم العمل والثروة .

فالوجودية فى ناحية من نواحيها الهامة احتجاج على الفوضوية كلها واحتجاج على الفوضوية الشيوعية قبل غيرها ، وما يتلاقيان فيه من إنكار التسلط فإنما هو مصادفة عرضية لا تلبث أن تبتدئ على اتفاق حتى تتشعب على شقاق ونضال . لأن إنكار التسلط فى الحركة الفوضوية يحمل بين طواياه إنكار المزايا الفردية ورد الأمر كله إلى الجمهرة الغالبة بالعدد والكثرة دون القيمة والكفاية .

إلا أن الحركتين تتشابهان فى خصلة واحدة وهى أنهما معاً غير مفهومتين على اتضاح وجلاء . لكثرة الشعب التى تتفرع عليهما وكثرة الأدعياء الذين يلصقون بهما وكثرة الآخذين منهما بالقشور دون اللباب .

## الفوضوية لا تنكر النظام

فالذى يسبق إلى الذهن من اسم الفوضوية - ولا سيما اسمها باللغة العربية - أنها تبطل النظام وتلغيه وتدعو إلى مجتمع مطلق من الآداب لا نظام فيه .

وهذا غير صحيح .

لأن الفوضوية إنما تنكر «التسلط» كما قال الطالب النجيب فى خطابه ، ولكنها لا تنكر الهيئات التى تتولى الأعمال العامة بالمشاركة والمشاورة ، ولا تلغى هيئة واحدة لازمة للتعليم أو لصيانة الصحة أو لإدارة المصانع أو لتوزيع المطالب والحاجات .

ودعوة برودون على الخصوص قائمة على لزوم هذه المصالح العامة واستغنائها عن «المتسلطين» الذين يعتملون على القوة دون غيرها فى تغليب مصلحتهم على سائر المصالح الاجتماعية .

وقد ألف كتاب «ما هى الملكية ؟» ليقول إنها هى السرقة ، ويقول من ثم أن اغتصاب السارقين للثروة المشتركة يضطرهم إلى اغتصاب آخر لحفظ ما سرقوه فى أيديهم وهو اغتصاب «السلطة» واحتكار الشريعة والقانون .

وعند برودون أن اغتصاب الملكية واغتصاب السلطة هما الباعث الأكبر على الجريمة والفساد ، فحيث لا اغتصاب ولا إجرام ولا فساد لا حاجة إلى التسلط والمتسلطين .

وهذا الرأى قد بطل عند علماء السياسة وعلماء الاجتماع كما قال الطالب النجيب ، لأن الدراسات النفسية والمقارنات الاجتماعية بين المجتمعات الأولى والمجتمعات الحديثة قد عرفت الناس ببواعث الجريمة ولم تحصرها فى البواعث الاقتصادية .

## ولا تدعو إلى القتل

ومن الشائع عن الفوضوية أنها تدعو إلى القتل أو إلى الاغتيال السياسى لتحقيق برنامجها .

وهذا أيضاً من الإشاعات التى تصدق على نفر قليل من الفوضويين ولا تصدق على الحركة كلها ، وقد بدأ الاغتيال السياسى قبل عصر برودون وعاش بعده ولم يكن موقف الدعاة الكبار منه موقف التأييد والتقرير إلا على سبيل الإغضاء والاضطرار .

والنفر القليل الذى يدين بالاغتيال السياسى بين الفوضويين يطلق على الاغتيال اسم «الدعاية بالفعل» أو الدعاية المثيرة ويعتقد أن حوادث الاغتيال تنبه



وقد أنكر كروبتكين ...
المعارف البريطانية بطبعتها الحادية ...
القصاص ورد الفعل للتنكيل بأصحاب هذه الحركة ...
الناس جزافاً بغير تفرقة بينهم لمجرد التنبيه ولفت الأنظار . ولكنهم ...
المعتدين ويجزونهم بما فعلوه فى حماية السلطة والقانون .

ثم نشأت فى روسيا طائفة فوضوية اشتراكية تنادى بمقت الاغتيال وترى أنه من معوقات الدعوة والمنفرات منها ، ولكنها لم تكن تشتد فى إدانة المغتالين ولم يكن بينها وبين الشيوعيين فارق كبير فى الوجهة الأخيرة . فإنما كان الفارق الجوهرى بين الفوضوية والشيوعية أن الشيوعية ترضى عن قيام السلطة أثناء فترة الانتقال لقمع العناصر الرجعية ، وتمهل هذه السلطة الموقوتة إلى أن تذبل على شجرتها فتسقط بغير جهد من المجتمع لانتهاء الحاجة إليها .

## ولا تنكر الاعتقاد

وليس من الصحيح أن الفوضويين جميعاً ينكرون الاعتقاد أو ينكرون الديانة فى صورة من صورها التقليدية أو المبتدعة .

فإن الشعبة التى يقودها سوريل ويقترح فيها إقامة النقابات مقام الحكومات تبنى دعوتها كلها على العقيدة التى تسميها الـ Mith وتؤمن بضرورتها لكل حركة إنسانية .

وإنما ينكر الفوضويون الديانات التى يتخذها المتسلطون ذريعة للسيطرة على الضعفاء . وهى من قبيل المذاهب التى قال عنها أبو العلاء :

إنما هذه المذاهب أسبا ... ب لجلب الدنيا إلى الرؤساء

## وليس برودون مؤسسها

كذلك يقال دائما إن برودون هو أبو الفوضوية وصاحب الدعوة الأولى إليها وهو قول صحيح إذا أريد به تنسيق الفلسفة وتطبيقها على النظم العصرية ، ولكنه مع ذلك غير صحيح على إطلاقه فى الزمن القديم أو فى الزمن الحديث .

فالفيلسوف الرواقى زينون الذى نشأ فى القرن الرابع قبل الميلاد كان يؤمن بالمجتمع المتحرر من السلطة ويفخر بأن تلاميذه يتعلمون منه أن يصنعوا طوعاً ما يصنعه سائر الرعايا مكرهين أو مهددين .

والمفكر الإنجليزى وليام جدوين Goduin الذى ظهر فى القرن الثامن عشر شرح فى كتابه عن العدل الاجتماعى وسائل الحكم الذى يتوزع بين الهيئات ولا ينحصر فى سلطة مركزية تملك وسائل الإرهاب والإكراه .

ويمكن أن يقال إن فلسفة الحكم منذ وجدت كانت تشتمل فى كل عصر على مدرستين متقابلتين : مدرسة التوسع فى سلطان الحكومة لتنظيم المجتمع ، ومدرسة التضييق فى هذا السلطان والاكتفاء منه بأقل ما يستطاع لحماية الأبرياء ، وليست الفوضوية إلا تطرفاً فى هذه المدرسة إلى أقصى اليسار ، يدعو إليه تطرف الاستبداد على النحو الذى كان عليه قبل الثورة الفرنسية .

## الوجوديات

أما الوجودية فالاضطراب فى قواعدها أشد من الاضطراب فى قواعد الفوضوية ، لأنها وجوديات كثيرة لا وجودية واحدة ، وربما تناقض الفيلسوفان الوجوديان فى العصر الواحد والبلد الواحد كما يتناقض الإيمان العميق والإلحاد السافر أو كما يتناقض الزهد والإباحية ، ولعل الكثيرين لا يفهمون منها إلا اللفظ الشائع عن الإباحية الأخلاقية المنطلقة من جميع القيود ، فيقبلون عليها لأنها سند فلسفى يسوغون به ضعفهم وانحلالهم ، وهم يخجلون - أو ينبغى أن يخجلوا - من الضعف والانحلال بغير سند منسوب إلى الفكر والفلسفة .

والأساس الصحيح الذى تقوم عليه الوجوديات السليمة هو إنصاف ضمير الفرد من طغيان الجماعة على استقلاله ، ولكن الاستقلال كالمال يلزم الإنسان لأغراض كثيرة ، فمنه ما يلزمه للعصمة من الزلل ومنه ما يلزمه للتورط فى الزلل وتيسير الذرائع إليه .

وأسوأ الوجوديات الإباحية لا يسوغ الانطلاق من قيود الآداب بغير نظر إلى العواقب والضحايا ، فإذا اختار الوجودى أن يستوفى كيانه الفردى بإشباع شهواته فهو حر فى اختياره واحتمال جرائر هواه ، وهو حقيق أن يوازن بين الخطر والإحجام على علم بما يصيبه من المنعة وما يصاب به من الأذى ، وتلك هى قيمة «الاختيار» الملائم فى عرف هؤلاء الوجوديين .



أما المسوغ الفلسفى الذى يستند إليه الوجوديون الإباحيون فهو أسخف الأسناد الفلسفية التى ظهرت فى عالم الفكر والعقيدة .

إنهم يقولون إن الوجود الحقيقى هو وجود الفرد المعروف بشخصه وكيانه ، وإنما النوع كلمة أو لفظة أو خيال لا وجود له فى غير التصور ، وليست «الإنسانية» إلا كلمة خاوية لا توجد بمعزل عن هذا الفرد وذاك الفرد أو هذا الإنسان وذلك الإنسان .

ومن هنا اسم الوجودية الذى ينتسبون إليه ويحسبونه تصويراً للواقع لا مراء فيه .

إلا أن الواقع الذى لا مراء فيه أن النوع موجود فى تركيب كل إنسان وإنسانة ، وأنه ما من خلية فى بنية الفرد لم يتمثل فيها النوع تمثيلا أوفى وأعمق من تمثيل الفرد ذاته خصائصه ومقوماته .

ولقد ثبت ثبوت اليقين أن قوام البنية مرتبط بالغدد الصماء وغير الصماء ، وأن علاقة هذه الغدد بالخصائص النوعية وثيقة جدًا فى عملها المنفصل وأعمالها التى تتعاون عليها .

وإذا كان تمثيل النوع حيويًا أو «بيولوجيًا» حقيقة لا ريب فيها فالتمثيل النفسانى أو السيكولوجى حقيقة تضارعها ثبوتاً ويقيناً إن لم تكن أبرز منها للوعى والشعور .

وعلى هذا لا يمكن أن يقال إن الفرد موجود حقيقى وأن النوع وهم ليس له وجود ، لأننا لا نستطيع أن نتخيل فرداً مجرداً من الخصائص النوعية فى كل خصلة من خصاله وكل خلجة من خلجات وعيه وشعوره ، ومن قال إنه ينطلق على هواه ويمضى على رأسه غير مبال بمصير النوع إلى الفناء فعليه قبل كل شىء أن يخرج من دعوى «الوجودية» إلى دعوى «العدمية» .. لأن فلسفته تقوده إلى فناء الفرد وفناء الإنسانية ، حين يزعم أنه يبالى بحاضره ولا يبالى بمصيره ولا بمصير الإنسانية جمعاء .

وبعد فهذه الوجوديات كلها شىء والمدارس الفوضوية كلها شىء آخر

إن الوجودية لا تسرى على الجماعة ولا تتجه إليها إلا من طريق الاتجاه إلى استقلال الفرد على حدة .

أما الفوضوية فهى جماعية قبل كل شىء ، وهى حركة سياسية لا تنظر إلى الأفراد متفرقين ولا تبالى بهم مستقلين ، وكلهم سواء عندها فى ظل النظام الذى

لا سلطة للطغاة عليه ، وإذا اتفق الوجوديون والفوضويون فى كراهة التسلط فقد يتضارب الفريقان إذا كانت المسألة مسألة طغيان الجماعة لا مسألة الطغيان من أصحاب السلطان .

## أنا وجودى . . .

وكاتب هذه السطور «وجودى» إذا كان معنى الوجودية إنصاف الضمير الفردى وتقديس الإنسان المستقل بفكره وخلقه ، وعندنا أن الجماعة المثلى هى الجماعة التى تهيئ للفرد غاية ما يستطاع من الكرامة والاستقلال ، وأنها إذا توقف وجودها على فناء الفرد ومحو استقلاله جماعة جديرة بالفناء .

إلا أن الوجودية التى تؤمن بوجود الفرد لينسى واجبه ولا يذكر غير هواه ليست فى الحق إلا عدمية باسمها وفعلها ، وهى من المفارقات والأغاليط بالنسبة إلى الآحاد وبالنسبة إلى الأنواع والجماعات .



# فلسفة الحكيم*

والحكيم هنا اسم وصفة .

إنه اسم الزميل الكاتب القصصى الموهوب الأستاذ توفيق الحكيم .

وأما الصفة فهى صفة الفيلسوف التى ترادف صفة الحكيم ، وهى الصفة التى اتسم بها الزميل فى كتابه الجديد عن «التعادلية» ليشرح فلسفته الجامعة فى مسائل الكون والحياة .

وخلاصة هذه الفلسفة كما يدل عليها اسم الكتاب أن «التعادل» هو الحقيقة الأولى فى كيان الأرض وكيان الإنسان .

قال فى الصفحة السابعة عشرة إن الأرض «كرة تعيش بالتوازن أو التعادل بينها وبين كرة أضخم هى الشمس . . . فإذا اختل هذا التعادل ابتلعتها الشمس أو ضاعت فى الفضاء . . . التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض . فهل صفة التعادل هى أيضاً الحقيقة الأولى فى كيان الإنسان ؟ فلننظر أولا كيف يعيش الإنسان من حيث هو كائن مادى . إنه يعيش طبعاً بالتنفس ، ما هو التنفس ؟ هو حركة تعادل بين الشهيق والزفير . فإذا اختل هذا التعادل بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغى طاغياً على الزفير أو امتد الزفير أكثر مما ينبغى جائراً على الشهيق وقفت حياة الإنسان . فإذا تركنا التركيب المادى إلى التركيب الروحى وجدنا عين القانون فالتركيب الروحى للإنسان له هو أيضاً شهيقه وزفيره فيما يمكن أن نسميه الفكر والشعور ، أو بعبارة أخرى العقل والقلب ، والحياة الروحية السليمة هى أيضاً تعادل بين الفكر والشعور» .

## بين الرصيفين

تلك هى خلاصة «الفلسفة التعادلية» التى يدين بها الحكيم الكاتب ، والحكيم الحكيم .

---

* ١٨/ ٦/ ١٩٥٥ .

ويبدو لنا أن الأستاذ دخل فى البحث بهذه الفكرة ، ولم يخرج بها بعد البحث فى هذا الكتاب على الأقل : كتاب التعادلية .

ومن الجائز أن الأستاذ - فى حياته الفكرية - بحث ثم انتهى إلى هذه الفكرة وأخذ بالمقدمات زمناً طويلاً ثم استطرد منها إلى النتائج فى خاتمة المطاف .

ولكنه فى الكتاب قد طرق الباب وفكرة «التعادل» معه على الباب .

ونحن نؤمن برسالة الفن فى توضيح الأفكار ، ونؤمن بأن - التصوير الفكاهى - أو الكاريكاتور - هو خير وسيلة لإبراز فكرة تحتاج إلى الإبراز .

ولهذا نعمد إلى هذا التصوير «الكاريكاتورى» لنقول إن السلامة فى رأى صديقنا الفيلسوف هى السير فى وسط الطريق بين الرصيفين .

لا على الرصيف الأيمن ولا على الرصيف الأيسر ، بل فى مكان متعادل بين الرصيفين .

ولا بد من الاستعداد قبل ذلك بنمرة الإسعاف . . !

## مقابلة وضعية

إن حرص الأستاذ الحكيم على الأمثلة التعادلية قد أنساه أن التقابل بين الأشياء ضرورة وضعية آلية ، أو أنها على أحسن تعبير ضرورة لغوية اصطلاحية !

فماذا تكون المواضع إن لم يكن فيها يمين ويسار ، وأسفل وأعلى ، وأمام وخلف وأبيض وأسود ، وحر وبرد ، وحركة وسكون ، وجمال وقبح ، وصحة ومرض ، وشىء يقابله شىء فى كل وضع وفى كل تعبير .

فالتقابل بين الأشياء ضرورة وضعية لا محل فيها - أكثر الأحيان - للقيم الأخلاقية والمعانى الفكرية ، وإنما هى ضرورة الوجود المحدود بالنسبة إلى غيره من الموجودات ، وما يكون فوق هذا يكون تحت ذاك ، وما يكون على يمين سائر يكون على يسار غيره ، وما يكون حسناً فى وضع من الأوضاع يكون سيئاً فى وضع سواه .

## حتى التقابل بين الفكر والشعور

ونستطرد من المتقابلات الوضعية إلى المتقابلات التى تمتزج بالمعانى والآراء . وقد ذكر منها الأستاذ توفيق متقابلين اثنين مهمين فى مذهبه الفلسفى ، وهما العقل والقلب أو الفكر والشعور .



ويرى الأستاذ توفيق أن الإيمان من عمل القلب والشعور ، وأن التفكير المجرد من العاطفة يؤدى إلى الكفر والتعطيل .

والذى نراه نحن أنه لا تقابل بين الفكر والشعور حتى فى هذه المسألة التى يخطر على البال أنها مسألة فكر وشعور قبل كل شىء .

إن فى العالم اليوم ملايين من الخلق لا باعث لهم على الكفر والإلحاد غير باعث الشعور بغير تفكير .

إنهم يشعرون بالكراهية والسخط ويصبون غضبهم على الكون كله لينكروا فيه كل معنى ويجحدوا فيه كل جميل .

إنهم يشعرون بغواية الشهوات والموبقات ويشعرون بالعوائق التى تصدهم عنها من جانب الدين فيمرقون عن الدين ذهاباً مع الشعور بالمنعة ، والشعور بالانطلاق ، أو الشعور بالفوضى والتمرد على الأوامر والنواهى والمحركات والمحللات .

ومن الناس من يكفر بالله على سبيل التحدى والمناجزة ، لأنه يحسب أن الله يحابى ذوى النعمة والجاه ويريد أن يثور على هذه المحاباة فيجعلها ثورة فى صورة الإنكار والإلحاد .

ومن الناس من يهديه الفكر وحده إلى الإيمان ، لأن الفكر لا يناقض الإيمان بطبيعته بل يمشى معه فى طريقه ولكنه لا يستطيع أن يبلغ الغاية من هذا الطريق ، إذ كان الفكر محدوداً والغاية من هذا الطريق بغير حدود .

* * *

## والحياة ليست على الحياد

والحياة ، بعد ، ليست على الحياد بين هذه الموجودات ، كائناً ما كان وضعها من التقابل أو التعادل .

الحياة على الدوام خروج على الحياد إلى جانب من الجوانب ، وقدرة تقاوم دواعى التعادل إذا اقتضى الحال ، وكثيراً ما يقتضيه .

مثال ذلك حرارة الجسم وحرارة الهواء .

إذا تساوت حرارة الجسم وحرارة الجو فلا حاجة إلى وقاية من الملبس أو المسكن .

ولكن الحياة تخرج دائماً على الحياد لتزيد هنا أو تنقص هناك ، ولولا هذا الخروج على الحياد لما كانت الملابس ولا المساكن ولا المناجم ولا العلوم التى تعنى بخصائص المواد والتوفيق بين درجات الحرارة ومطالب الحياة .

والمثل الذى ضربه الأستاذ توفيق للتعادل من دوران الأرض حول الشمس أو ضياعها فى أجواز الفضاء .

إنه لو كان مثلا للحياد بين قوتين لأصيبت الأرض والشمس بالشلل ولم تتحرك هذه ولا تلك بانتظام ولا بغير انتظام .

ولكن الأرض تحركت لأن هناك شيئاً خارجاً على الحياد بين الجاذبية والاندفاع ، ولولا أن الأرض تملك ذلك الشىء الذى يقاوم جذب الشمس ودفعها على السواء لسقطت بغير حراك .

* * *

## ربح وخسارة

وبعد فإن الحياة «لعبة» لم تخلق ليخرج منها اللاعبون متعادلين «كيت» على سواء .

وإنما خلقت الحياة لتقاوم ما حولها وتتغلب على كل مقاومة ، وإنها لحية قادرة ما دامت «تقاوم» وتتغلب ، فإذا تعادلت قوى العمل والسكون ، أو قوى البناء والهدم ، وقفت وآذنت بالانحلال ثم الزوال .

الحياة قوة تعمل وتقاوم الحوائل دون عملها ، وظهورها بين عناصر المادة نفسه إنما هو ظهور شىء يتجه مع الدوافع والبواعث ولا يقف متوسطاً بين جميع الاتجاهات وكلما ارتقت الحياة تبين ارتقاؤها فى وسائل الاتجاه لا فى وسائل الوقوف والسكون بين الأطراف ، فهى إذا أرادت عملت ، وإذا عملت قدرت على المضى إلى وجهتها وتوسلت لها بوسائلها ، ومقياس الارتقاء بين حياتين أن الحياة الأرقى مريدة فعالة ، وأن الحياة التى دونها تخضع لما حولها وتتكيف بالمؤثرات ولا تؤثر فيها .

ولنضرب مثلا بالأستاذ توفيق نفسه ، وهو يهم بتأليف الكتاب عن التعادلية . فماذا كان يحصل لو تعادلت أسباب الكتابة وأسباب السكوت .

لا توجد فلسفة التعادلية .

وفلسفة التعادلية على كل حال شىء خارج على الحياد وينبغى أن يكون خارجاً على الحياد فى الساعة التى يحاول فيها إقناعى بالتعادلية ، ويحاول فيها أن يصل إلى يدى ثم إلى إرادتى ثم إلى عقلى ثم إلى عملى بعد الفراغ من الإقناع .



## وحمار الحكيم

وننتقل من الحكيم إلى حماره القديم .

لكنه هنا حمار له زميل أولى بالتقديم ، وهو حمار «بريدان» المشهور فى التعادل بين حزمتى البرسيم .

ضربوا المثل بحمار «بريدان» فقالوا إنه يهلك جوعاً بين حزمتى البرسيم عن يمينه وعن يساره ، إذا تساوت الحزمتان فى اللون والمقدار والرائحة وسائر المشهيات والرغبات .

وكان من المضحك أن يصور الفلاسفة حمارهم على هواهم ، وأن يتخيلوه واقفاً على الحياد بين الحزمتين ، فلا يميل إلى هذه أو إلى تلك إلا بمرجح فى إحدى الحزمتين .

وهذه فلسفة لن يعترف بها الحمار ولن يعمل بها فى ذلك الموقف ولا فى موقف غيره ، لأنه لا يقف فيه على الحياد ولا يلبث أن يطالب نفسه بالاختيار بين شيئين لا بين حزمتين من البرسيم .

لا يلبث أن يطالب نفسه بالاختيار بين الأكل أو الموت جوعاً ، ومتى اختار الأكل فإنه ليأكل يميناً أو شمالا ولا يبالى ذلك التعادل المزعوم بين برسيم اليمين وبرسيم الشمال ، فإنه هو لا يقف على الحياد بين الموت جوعاً وأكل البرسيم حيث كان .

* * *

## كاتب المسرحية كمفكر

ومن المصادفات أن كتاب «التعادلية» كان أول كتاب قرأته بعد الفراغ من كتابين وصلا إلى مصر فى الشهر الماضى وكلاهما يتكلم عن المسرحى المفكر أو القصاص المفكر ، أو عن الفكرة التى يعمل لها كتاب المسرحيات والروايات ، أحدهما كتاب «مؤلف المسرحية كمفكر» لصاحبه اريك بنتلى أستاذ الأدب المسرحى بجامعة كولمبيا الأمريكية .

والآخر كتاب «مقالات أدبية وفلسفية بقلم سارتر» مترجمة بقلم أنيت مكلسون من الفرنسية إلى الإنجليزية .

فكان الإغراء بالتطبيق قوياً بعد قراءة الآراء والقواعد والملاحظات ، ثم قراءة الفلسفة التى يكتبها بقلمه كاتب عربى فى طليعة المؤلفين التمثيليين ، وإن لم تكن رواياته المفرغة فى القالب المسرحى مما يمثل على المسارح فى جميع الأحيان .

* * *

## من العودة إلى التسلية

وفى وسع القارئ أن يتصور «برج بابل» على الطراز الحديث إذا استمع إلى الآراء المضطربة المتناقضة ، التى جمعت فى هذين الكتابين .

فمن هذه الآراء أن الدراما كما قال لويس قبل ثمانين سنة تتحول من المراسم الدينية إلى العبارة الفنية إلى التسلية وتزجية الفراغ ، وأنها لا تنقذ نفسها من هذه الحطة التى تنحدر إليها إلا إذا تخصصت لفكرة تدعو إليها أو لحالة اجتماعية تعرضها معرض النقد والتصوير .

ومن هذه الآراء أن الصور المتحركة قد أبطلت الدرامة الواقعة كما بطل تصوير الملامح والأشباه بعد ظهور الصور الشمسية . فلا حاجة اليوم إلى «المذهب الواقعى» أو المذهب الطبيعى على المسرح ، لأنها مذهبان متوافران على اللوحة الفضية بغير مجهود .

ومن رأى «بنتلى» أن الدراما العصرية مصابة بالجفاف واليبوسة ، وأنها إذا قرئت بعد شكسبير وشعراء اليونان كانت أشبه «بالسناريو» الذى ينتظر الملأ والحشو خلال التمثيل .

وإذا كانت الفكرة هى التى تنقذ الدرامة من خطة اللعب الماجن والتسلية الرخيصة فكيف يعالجها المفكر على أسلوبه الفنى دون أن يخرج على أصول الفن أو وظيفة الفنان ؟

يريد ماسون من المؤلف أن يختفى عن النظر وعن الفكر أثناء عرض الرواية . ويعيب على سارتر أنه يفتأ يشد الخيوط ويتدخل بين الشخوص كما يفعل صاحبه جوبتير فى التطفل على الواقع لتنفيذ مقاديره وإرسال بروقه ورعوده .

ويرد عليه بنتلى قائلا إنه لم يلاحظ هذا التطفل والاقتحام على مسرحيات سارتر وأنه - لحسن الحظ - قرأها قبل أن يطلع على فلسفة سارتر فبدا له أن القارئ يستطيع أن يتلقى أفكارها بداهة وإن لم يسمع من قبل باسم كيرجارد وهيدجار .



ونعود إلى سارتر فنسمع منه العجب فى نقد الفكرة الروائية . لأنه - وهو الفيلسوف الوجودى الملحد - يكتب عن الكاتب الكاثوليكى مورياك فيقول إن الكتاب المتدينين أصحاب «عقلية» صالحة لكتابة الرواية . لأن المتدين حر . . ولعله يغيظنا بيقينه لأنه شىء مكتسب . ولكنه إذا كان كاتباً روائياً فهذه الصفة فيه مزية» .

ثم يقول : «إنه حتى فكرة الخطيئة توافق أصلا من الأصول اللازمة لكتابة الرواية» .

ثم يفاجئ الكثيرين من الوجوديين المتشبهين به فى مصر والبلاد الشرقية حين يقول إن الفكرة المادية تناقض الحرية بل تناقض طبيعة الفكرة . لأنه كما جاء فى مقاله عن المادية والثورة : «إذا كان الواقع النفسانى تحت سيطرة الواقع البيولوجى وكان هذا الواقع البيولوجى تحت سيطرة الأحوال الطبيعية فى العالم فمن الجائز أن يكون الفكر دالا على سببه ولكنه لا يجوز أن يكون دالا على قصده وموضوعه» .

## برج بابل

وكن على يقين أنك تسمع الرأى ونقيضه من كل ناقد قبل أن تنتقل من البحث إلى غيره . أو من الفصل إلى ما بعده . لأن المصيبة العظمى فى هؤلاء النقاد أنهم مولعون بإعطاء الأسماء وإقامة الحواجز وتقييد الآراء فى سياق البحث عن حرية التفكير وكلهم تعنيه فكرة واحدة مسلطة على رأسه وهو يكتب أو يتعرض بالنقد لمن يكتبون . وتلك الفكرة الواحدة هى تبرئة الفن من تهمة «الفقر العقلى» أو التجرد من القدرة على التفكير . . وعلى هذا يحشرون الأسماء المصطنعة حشراً ليطلقوها على أفكار فجة كفقاقيع الصابون لا تقوى على نسمة هواء ، وأظن أن هذه الحركة لا تزال على مشابه وثيقة من الحركة النسوية فى عالم السياسة ، فإن المرأة التى تمتلئ بفضائل جنسها لا تعنيها مساواة الرجل فى حقوقه ولا فى واجباته ، وإنما تطمح إلى مساواته حين تشعر بالفقر النفسانى أو العقلى بالنسبة إليه ، فلا يرضيها إذن إلا أن تكون كالرجل فى جميع الصفات ، ولو كانت هذه الصفات من العيوب .

## والخلاصة

والخلاصة أن الفن لا يخلو من الفكر ولا يمكن أن يخلو منه لأنه «فن إنسانى» يعبر عن «الشخصية الإنسانية» .

وليس من المعقول أن يوجد فنان كبير بغير فكرة أو بغير فهم بديهى للتفكير ، ولكننا على هذا لا نزال نشعر بوظيفةٍ للفنان ووظيفة أخرى للفيلسوف ، وقد نقترب بهذه الحقيقة من المشاهدات اليومية إذ قلنا إن الرجل العظيم لا يخلو من خلق عظيم . ولكننا نطالبه بغير عمله حين ننتظر منه بحثاً فى حقائق الفضائل ودخائل المحاسن والعيوب التى يتصف بها العظماء وغير العظماء .

* * *

**مكان التعادلية**

وبعد فأين مكان «التعادلية» من فلسفة الحياة ؟ وأين هى من الفكرة التى تشيع فى روايات الحكيم ؟

الحق أن «الفكرة» فى روايات الحكيم الفنان أقوى من الفكرة فى كتاب الحكيم الحكيم .

هناك لا تعبر فصلا من رواية دون أن تلقاك فكرة صائبة أو فكرة جميلة على لسان شخص من شخوصها ، يقولها ولا يباليها .

وهنا فى كتاب الحكيم الحكيم تفتتح الكتاب من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة على فلسفة وتفكير ، ولكنك لا تأمن إذا أسلمت زمامك للحكيم الحكيم أن يدلك على أسلم الطرق فى الحياة : طريق التوسط بين الرصيفين .



# شخصيات أمام محكمة التاريخ*

كنت أعيش هذا الأسبوع فى يوم واحد لم يحن بعد ، وهو اليوم الحادى عشر من شهر يوليو/.

إنه يوم لا ينسى فى تاريخ مصر الحديث لأنه يوم ضرب الأسكندرية وفاتحة أيام الاحتلال الذى دام بعد ذلك أكثر من سبعين سنة .

وإنه ليوم لا ينسى فى تاريخ النهضة الشرقية ، لأنه يوم الذكرى لأكبر المصلحين المصريين الإسلاميين منذ القرن الرابع للهجرة ، وهو الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله .

وإنه ليوم أذكره فيما أذكره من أعمال التأليف ، لأنه يرتبط بقصة كتاب ألفته عن اليوم الحادى عشر من شهر يوليو هذا ، وكأنما كان منظوراً إليه بلحظ الغيب على حد تعبير أبى العلاء ، لأنه صدر فى اليوم الخامس من الشهر وصودر فى اليوم السادس منه بأمر فاروق أو حاشية فاروق ، ثم جاء اليوم السادس والعشرون من الشهر وفاروق فى ديار غير هذه الديار !

**محكمة تاريخية**

كلما قلبت مراجع التاريخ فى حادث من الحوادث المصرية الكبرى خطر لى أننا فى حاجة إلى محكمة عادلة تنظر فى تاريخ ذلك الحادث نظر القضاة ، وتدين من تدين وتبرئ من تبرئ بوثيقة القاضى المنصف وبيِّنه الشهود العدول .

محكمة تستدعى الموتى كما تستدعى الأحياء ، وتنيب عن الموتى من يحضر عنهم ، للدفاع أو للمناقشة ، كما تنيب المحاكم من يحضر عن الغائبين .

ما أكثر المجرمين الذين يخرجون يومئذ بهالة الشرف .

وما أكثر الأبطال الذين يخرجون يومئذ بوصمة العار .

وما أكثر «الشخصيات» التى تخلق فى الأذهان خلقاً جديداً يناقض كل ما

* أخبار اليوم : ١٩٥٥/٧/٩ .

عرف منها قبل الآن . حتى كأنها كانت مرسومة على البعد بوحى الخيال فى قصة من القصص ، فولدت بعد ذلك فى عالم الحقيقة بسيرة أخرى .

* * *

## شخصيات

وقرأت عن اليوم الحادى عشر من شهر يوليو مشغولا بهذا الخاطر ، معتمداً أن أشهد تلك المحكمة التاريخية كأنها قائمة بقضاتها وشهودها ترد الاعتبار وتدين الهاربين من وجه العدالة ، وتخلق «شخوص» التاريخ على حقيقتها مبرأة من الزيف والمبالغة والتشويه .

ومرت بى «شخصيات» كثيرة لا تستغنى واحدة منها عن شهود هذه المحكمة .

شخصيات تبرز فى التاريخ بشارات المجد والعظمة ، وليس أيسر من إدانتها بالخيانة العظمى ، لو وقفت بين يدى ذلك القضاء .

وشخصيات تتوارى فى التاريخ عن الخزى الذى يلاحقها ظلماً وعدواناً ، وليس أيسر من إبرازها على قمة المجد أعلاماً يقتدى بها العاملون .

كم من هؤلاء وكم من هؤلاء !

أيها التاريخ ! ما أهون احتقارك على من يريد أن يهزأ بك ويشيح عنك ببصره .

وأيها الضمير ! ما أحوج العاملين إليك كلما أشاحوا بأبصارهم عن التاريخ ! ونظروا إلى المؤرخين بين جاهل ومعرض ومأجور وسابح فى بحر من الظلمات ، لا يطلع عليه نهار .

* * *

## عبد الله النديم

كثيرون وكثيرون

كثير من يدان بعد تشريف وكثير من يعظم بعد هوان ، وكثير من يخلق فى الأذهان خلقاً جديداً بعد الإدانة والتعظيم .

ومن هؤلاء الذين يخلقون خلقاً جديدًا فى الأذهان رجل من أجدر الناس بالإنصاف بين أهل القلم ، وهو الأديب الخطيب الصحفى الرائد عبد الله النديم .



لا تفهم من جملة الأخبار عنه إلا أنه داعية ثرثارة أقرب إلى التهريج منه إلى الجد والرأى السديد .

ولا تكاد تعرفه بهذه الصورة التى لا تنصفه حتى يستوقفك بخبر صغير هنا أو كلمة عارضة هناك ، فتبادر الصورة الشائهة قائلا : قفى أنظر إليك نظرة أخرى ، فما أنت على التحقيق بعبد الله المظلوم .

ونظن أنه يبدو كذلك لمن شاهدوه وسمعوه ولا يبدو بها لمن يقرأون تاريخه ، وحسب ، بعد سنوات وسنوات .

رآه «بكتال» المستشرق الإنجليزى الذى يعرف الشرق معرفة أبنائه ويعرف اللغة العربية معرفة مكنته من ترجمة القرآن الكريم ، ويعرف الإسلام معرفة حملته على الإيمان به والتعرض من جراء ذلك لكثير من المتاعب والمنغصات ، ويعرف الثورة العرابية تلك المعرفة التى تظهر للقارئ من قصته عن أبناء النيل .

ووصف «بكتال» شخصية عبد الله النديم فى قصته عن الثورة العرابية ، فوصف لنا شخصيته تكمن فيها النار الملتهبة وراء صفحة من القداسة والخشوع ، ويكاد يقول إنه كان يحرض على الفتك كما يحرض على الثورة ، وأن القلم واللسان بعض أسلحته – لا كلها – فى ذلك الصراع العنيف .

كان عبد الله النديم يحرض على الزحف بالجيش إلى ميدان عابدين ، ويكتب فى صحيفته عن ذلك الموكب الرائع أنه «كان زفاف الحرية فى مصر» .

وكان يتكلم فى الجماهير فكأنما يلقى النفط الملتهب على الحطب ، ولكنه كان يحسن الإطفاء كما يحسن الإشعال والإيقاد .

قالت صحيفة مهملة من صحف تلك الأيام بأسلوبها الذى ننقله بحروفه : «لما كان حضرة الأستاذ النديم حريصاً على تنفيذ ما تعهد به عرابى من حفظ الأمن مراعاة للمصلحة وتلاحظ له أن أفكار الأهالى متهيجة بسبب لائحة الدولتين ووجود أسطوليهما فى مياه الإسكندرية وظهر له ذلك بما حدث من المتظاهرين أثناء مرور دولتلو درويش باشا خشى منه أنه ربما وقع من بعض الرعاع ما لا ينطبق على تعهد عرابى ومصلحة الحزب الوطنى فاغتنم فرصة تجمهر الناس وبث فيهم بعض إخوانه يوعزون إليهم بالحضور إلى جهة الأنفوشى فى مساء ذلك اليوم لسماع خطبة أدبية ، وما جاء وقت العشاء حتى توافد الناس زمراً إلى تلك الجهة . . وقام

فيهم الأستاذ المومأ إليه خطيباً فحضهم على استعمال السكينة والهدوء وترك السياسة لأربابها من رجال الحل والعقد ولامهم على ما حدث منهم من التظاهر فى هذا اليوم وحرضهم على الالتفات إلى الأمور النافعة من الصناعة والتجارة إلى غير ذلك من النصائح المفيدة .

قال الكاتب فى صحيفة البريد «ومما يضحك الثكلى ما زعمه ذوو الأغراض بعد دخول الإنجليز مصر أن هذه الخطابة كانت فى تحريض الوطنيين على الفتك بالأجانب مما نشأ عنه حادثة ١١ جونيو مع أنى كنت حاضرها وشاهدت نديماً بعينى رأسى وسمعت جميع مافاه به مما لا يخرج عن موضوع ما فاه به آنفاً» .

وإنك لتكاد أن تعرفه بهذه الصورة مسلماً له صناعة اللسان بشقيها من الإثارة والتسكين ، إذ بخبر صغير فى زاوية من زوايا الصحف يريك الرجل من ذوى الرأى والمشورة فى مأزق الحرج ، ويخيل إليك أنه لو أطيع لتغيرت الحال بخير منها على الأقل فى بعض الأمور .

كانت الضربة الكبرى التى زعزعت العرابيين وأوقعت الفشل فى صفوفهم وجرت إلى الفتنة فى الجيش المقاتل «بياننامة الخلافة» كما سميت فى ذلك الحين وهى المنشور الذى أعلن فيه السلطان العثمانى عصيان عرابى وخروجه على ولى الأمر ومروقه من حظيرة الشرع الشريف .

وكان رأى عرابى إخفاء هذه «البياننامة» والمبالغة فى كتمانها .

أما «عبد الله نديم» فقد أشار بغير ذلك وألح على عرابى بوجوب نشر «البياننامة» مشفوعة برسائل التشجيع التى كانت ترد إليه من حاشية السلطان . وأن يعقب على هذا وذاك بالحملة على الدولة البريطانية ومشيرى السوء من حول السلطان لأنهم أكرهوه على توقيع ما كتبوه وتطاولوا على ذلك المقام الأعلى – مقام الخلافة – بالتهديد والإرغام .

قال عبد الله نديم : «إن البياننامة لابد أن تصل بكل حيلة إلى داخلية القطر ويطلع الناس عليها فتنفر القلوب وتتفرق الكلمة بخلاف ما إذا عرضت عليهم مشفوعة بالرد عليها» .

وهكذا حصل . . فإن الجيش فوجئ بالمنشورات فأحدث فيه ما أحدثه رفع المصاحف على الأسنة فى حرب على ومعاوية . وكان لذلك أثره فى اضطراب العزائم وتوهين الثقة بالطاعة الواجبة لقائد الميدان .



وقد شهد النديم بوادر هذا الاضطراب لأنه لم يكن ينزوى فى داره ليكتب صحيفته بين الجدران ، بل كان ملازماً لعرابى فى خط النار . ليجبر بالخطابة والرأى العاجل ما تكسره نكبات الهزيمة والخيانة . وقد كان أكثر الهزيمة من خيانة الأعوان المتواطئين مع الأعداء ، وبلغ منها أن الجيش الإنجليزى ضم إليه «البروجية» الذين لازموا قصر الخديو . . فضربوا «نوبة» الارتداد التى لا يشك سامعها من المصريين أنها صادرة من معسكر القيادة ، ولم ينكشف السر إلا بعد وقوع الفشل والاختلال .

**والذى لا ينسى نسى !**

أما اليوم الذى لا ينسى فى تاريخ النهضة الشرقية فقد نسى مع الأسف الشديد نسى حيث ينبغى أن يذكر . وحين ينبغى أن يذكر ، لأنه فى هذه السنة يوافق انقضاء خمسين سنة على وفاة الإمام الذى لم ينس إنهاض الشرق الإسلامى قط . فنهض لينساه ! .

إن هذا الموعد يتخذ فى الشعوب الحية الذاكرة مناسبة لإحياء الذكريات والوفاء بالشكر لمن يستحقه من النوابغ والعظماء والمصلحين ، وإن رجالا أصغر قدراً وأهون أثراً من محمد عبده تقام المحافل لذكراهم ويدعى إليها القريب والبعيد للمساهمة فى هذا الواجب الذى يشرف الأمم قبل أن يشرف عظماءها فى القبور .

وإن هذه المحافل لتنفع الأحياء ولا نفع منها للأموات لأنها تنويه بالأمم التى تخرج للعالم ذلك العظيم ، وتنويه بالخلق ينبهها إلى الحفاوة بذكراه .

وما من أمة فى الشرق الإسلامى إلا وهى على أهبة لتلبية الدعوة إلى ذكرى الرجل الذى يتردد اسمه من أقصى المغرب إلى تخوم الصين .

ونحن نسمع اليوم بالحزب الإسلامى فى أندونيسية ونعلم أنه أقوى أحزابها بالعدد والصوت المسموع ، ولا يعلم الكثيرون منا أن قادته يعترفون بالتلمذة لمحمد عبده ويطلبون إلى اليوم كتبه وآثاره من الديار المصرية .

ومنذ سنتين كنت فى إحدي المكتبات فأقبل ثلاثة من حجاج الصين يسألون عن تفسير «محمد عبده» ويقول لهم صاحب المكتبة إنكم تسألون عن تفسير المنار . فيتشاورون بينهم هنيهة ولا يشترون التفسير حتى يعلموا أنه مقتبس من دروس الأستاذ وأن صاحب المنار تلميذ من تلاميذه الكبار .

ومن المغرب إلى نيجيريا إلى أفريقية الجنوبية إلى أفريقية الشرقية لا تذكر النهضة الإسلامية إلا ذكروا معها اسم «محمد عبده» فى مقدمة الأسماء .

ورجل مثل هذا تنقضى خمسون سنة على وفاته ولا يسمع هؤلاء الذاكرون لفضله أن فضل الرجل مذكور فى بلده وفى المعهد الذى نشأ فيه وتلقى الأذى كله فى سبيل إصلاحه ومات والعداوة تلاحقه من جراء هذا الإصلاح .

يا له من وفاء !

لقد كان أيسر شىء يستطيعه الجامع الأزهر أن ينهض بهذه الأمانة وأن يتخذ منها مناسبتها الحاضرة ، وإننا لفى حاجة إلى خلق هذه المناسبات ، لو لم تكن حاضرة بغير تدبير .

وكان هذا الواجب أوجب ما يكون على الجامع الأزهر لأنه ظفر بالجهد الأكبر من جهود المصلح العظيم ، ولم ينبغ فيه أحد فى هذه السنين الخمسين لا يرجع نبوغه إلى غيرة ذلك الرجل وجهاده الذى أعناه فى إبان القوة والمضاء .

ومنذ خمسين سنة فارق الرجل دنياه «مستحقا» كل عداوة الأقوياء فى سبيل رسالته التى شملت بلاد الشرق الإسلامى من أقصاها إلى أقصاها ، وثارت ثورة الأمير - وهو غائب عن مصر - لأن أناساً من حاشيته ساروا فى الجنازة ونسوا كما قال فى خطابه إليهم «إنه عدو الله وعدو النبى وعدو الدين وعدو الأمير وعدو العلماء وعدو المسلمين وعدو أهله . بل وعدو نفسه . فلم هذه المجاملة ؟» .

وصح من هذا كله أن الأمير عدوه الذى لم ينس عداوته بعد أن فارق الحياة لأنه أراد للأزهر وللمعاهد الدينية وللمحاكم الشرعية نظاماً غير النظام الذى ارتضاه لها الأمراء منذ مائة سنة ! .

تلك عداوة الأمير للمصلح الكبير من أجل رسالته الباقية .

فأين الصداقة الباقية له بعد خمسين سنة ؟ .

## فى ذمة التاريخ

ومهما يكن من غلط التاريخ فلنحسب له من الحسنات أنه فى هذا المقام أصوب من التلاميذ والمريدين . ومن الأحياء الذين لا يذكرون ولا يشكرون !



ولن يقول الناس إن ذكرى «محمد عبده» ذهبت منسية لأنه لا يستحق أن يذكر . وإنما يقولون إن الذين ينسونه هم المنسيون فى حساب الحق والعرفان بالجميل .

* * *

## وبين الحادى عشر والسادس والعشرين

ونختم الذكريات من هذا اليوم الحادى عشر . بعبرة الكتاب الذى صودر لأنه أفشى قليلا من الأسرار التاريخية التى لصقت بذلك اليوم العصيب .

علم الله أننا لم نقل فى ذلك الكتاب كل ما ينبغى أن يقال . وعذرنا فى ذلك أنه - مع هذا - لم يسلم من المصادرة السريعة . ولم تصبر عليه حاشية القصر بضع ساعات . ولا نقول بضعة أيام .

بل الشاهد بين يدى القضاء يقسم اليمين على أن يقول الحق وأن يقول كل الحق ولا يقول إلا الحق» .

وأردت أن أقسم هذا اليمين بين يدى التاريخ فأشفقت أن أكون بهذا قائلا مالا يقرأ ولا يسمع له خبر .

فاكتفيت بثلثى اليمين ، وأقسمت أن أقول الحق ولا أقول إلا الحق . . فكأننى لم أصنع شيئاً بهذا الاختصار .

حتى مضى أسبوعان اثنان ، وكأنهم لم يصنعوا شيئاً بمصادرة الكتاب . . . لأن ما قيل بعد الأسبوعين فى فاروق وأجداد فاروق طوفان من الأرض والسماء ، إلى جانب ذلك الجدول الصغير عبرة لمن ينسون العبر ، وقديماً قيل :

ومهما يكن عند امرئ من خليقة      وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وسيخالونها تخفى على الناس ألف مرة وآلاف المرات ، لأن التكرار لا يعلم أبناء آدم وحواء .

# المجتمع ووسائل الإنتاج

## أين هم.. ياعدوى؟؟

قرأت أخيراً مقالين للأستاذ . . . نبهنى إليهما صديقان من الأدباء .

والذى يعنى القراء من هذين المقالين موضوعان علميان . وهما موضوع الإنتاج المادى فى الشيوعية ، وموضوع الفرد وحقوقه فى الوجودية . ويلحق بهما ذيل يتعلق بالأبرياء الذين يقول الأستاذ . . . إننى رميتهم بالشيوعية وهم لا شيوعيون ولا هم يطيقون الشيوعية من بعيد . ولا عمل لهم إلا أن يعلنوها فى السر – فى السر فقط- ويوافقوها فى العلانية من قبيل المجاملة ليس إلا .

أما موضوع «وسائل الإنتاج المادى» فالأستاذ . . . يزعم أننى أنكر تأثيره فى حوادث التاريخ وهو زعم غير صحيح لا أقول به ولا أعلم أن أحداً من أصحاب المذاهب الاجتماعية قال به فى عصر قديم ولا حديث .

فتأثير وسائل الإنتاج أو الماديات على الإجمال مسلم مقرر فى أقدم الآراء ، ولم يخترعه الشيوعيون أو الماديون التاريخيون ، وإنما جاء الشيوعيون أخيراً بإنكار كل شىء غير وسائل الإنتاج ، فلا أديان ولا عقائد ولا آداب ولا فنون إلا من وسائل الإنتاج ، وبغير وسائل الإنتاج لم يكن من الممكن ظهور الحقائق المجردة فى الرياضيات ، فإنها لولا الانتفاع بها فى وسائل الإنتاج لم يكن من المستطاع أن يدركها عقل الإنسان .

هذا الذى ننكره ونعلم أن كارل ماركس إمام الشيوعية يخلط فيه خلطاً ذريعاً لا يستقر على قرار .

فهو تارة يدعى أن وسائل الإنتاج هى التى تخلق الطبقة المسيطرة على المجتمع ، وتارة يدعى أن الطبقة المسيطرة هى التى تخلق وسائل الإنتاج . وفى غير هذين الموضوعين يقول إن المكنات ومصنوعاتها هى المهم فى تطور التاريخ . وفى موضع آخر يقول إن المهم هو العلاقات الاجتماعية التى تربط بين المشتغلين بتلك المكنات والمصنوعات ، ويهرب من مناقضة الواقع فيقول إن المؤثرات المادية القديمة قد تبقى



بعد أوانها بحكم العادة ولكنه لا يقول لنا ما هى تلك العادة التى
المادية الحاضرة بفعل المؤثرات المادية قبل خمسين أو ستين سنة .

هراء يحسبونه علماً وهو أهزل من الهراء ، وما كان لنا أن ننكر ،
الماديات حقها من التأثير ولا يلغى كل ما عداها من عوامل التاريخ . فأ،
المادية الذى يفسر تحنيط الموتى وحرق جثثهم بسبب واحد فنحن لا ننكره _ سب
كما يظن الأستاذ . . . متواضعاً فى الظن . . بل نحن نقول كما تقدم إنه هراء من
أهزل الهراء ، أو أنه بمرتبة دون ذلك أهزل من الهراء .

ويرى الأستاذ . . . أننا أخطأنا فى القول بأن الوجودية تقرر الفردية . فليعلم الأستاذ . . . إذن أننا نتحداه أن يذكر معنى واحداً للوجودية غير الفردية من الألف إلى الياء .

فالوجودية كما يدل عليها اسمها مأخوذ من الوجود Existence مقابلا للماهية Essence .

ومعنى هذه المقابلة أن الموجود الحقيقى هو الفرد ، وأن الماهية كلمة على اللسان لا وجود لها فى الخارج .

فزيد وبكر وعمرو وخالد موجودون لا شك فى وجودهم ، ولكن «الإنسانية» التى تجمعهم فى ماهية واحدة خيال فى الذهن أو كلمة على اللسان .

إذا استطاع الأستاذ . . . أن يذكر للوجودية على تعدد مذاهبها معنى غير هذا فليتفضل بذكره وذكر مدلوله الذى يراه ، وإنا لمنتظرون .

وبعد هذا نهلل قليلا للأستاذ . . . لغيرته على الأبرياء المتهمين ، ونصيح أو نهم بأن نصيح : يا سلام . الدنيا بخير يا خلق الله .

ولكننا لا نذكر أننا تعرضنا للاهتمام مراراً من هؤلاء الأبرياء حتى نعود إلى التهليل والتحبيذ مع إيقاف التنفيذ ، فإننا لا ندرى أين كانت غيرة الأستاذ . . . على الحق يوم تطاول على كاتب هذه السطور من لا يرتفعون إلى مواطئ نعله فزعموا أنه كاتب مأجور .

وإلى أن يقول لنا الأستاذ . . . أين كان يوم كان أبرياؤه يقذفون بالإفك والبهتان- نحب أن نبلغه بعض الإشاعات عن مخلوق يقال له العنقاء تارة ويقال له الشيوعية تارة أخرى بما لها فى العالم من دعايات وأذناب ومأجورين .

لا يحتاج منا الأستاذ . . . إلى قسم لنقول له إن تلك العنقاء موجودة لاشك فيها ، ولا يحتاج منا إلى قسم لنقول له إن هذه العنقاء لها دعاة منتشرون فى أرجاء

الكرة الأرضية ، وإنهم – بغير قسم أيضاً – لم يغفلوا عن الديار المصرية بصفة خاصة . لأنها مفتاح الشرق والعالم الإسلامى والبلاد العربية والقارة الأفريقية فى وقت واحد .

ولا يحتاج منا الأستاذ مرة أخرى إلى قسم لنقول له إن الدعاة لهم عمل مطلوب منهم ، وهو ترويج سياسة الكرملين والحملة على خصومه بكل حجة مدعاة إلا أنهم خصوم الشيوعيين .

والآن وبغير حاجة إلى قسم أيضاً ، نتحدى الدكتور . . . أن يذكر لنا كاتباً فرداً من أبريائه كتب حرفاً واحداً يخالف سياسة الكرملين فى عهد من عهوده وأنه ليعلم أن أبرياء ه مصريون – مصريون جداً – ولكنهم لم يحملوا على الصهيونية مرة واحدة يوم كان مرضياً عنها من الكرملين ، ولم تكن حملتهم هنا إلا تابعة للحملة من هناك .

وهؤلاء الأبرياء – وياللمصادفة البريئة – هم الذين يحملون على كاتب هذه السطور ، ولا يعرفون سبباً للحملة عليه إلا ما يفترونه من الأكاذيب التى يظهر بطلانها من نظرة واحدة ، بل يظهر أنها مناقضة للحقيقة فى الجملة والتفصيل .

والعجيب أن أبرياءه هؤلاء لم ينبسوا بكلمة فى نقد الشيوعية والتحذير من خطرها ، وهم مع ذلك فى رأى الأستاذ . . . لا شيوعيون ولا يطيقون رائحة الشيوعية من بعيد .

أفى وسع الأستاذ . . . إذن أن يدلنا على أذناب الشيوعية أين هم إن لم يكن هؤلاء هم أولئك الأذناب ؟ .

أفى وسع الأستاذ أن يفهم ويريد منا أن نفهم ، أن الشيوعيين لهم دعاة مأجورون ليخدموا الشيوعية بالدعاء فى المساجد والكنائس وإقامة الصلوات فى الخلوات والمحاريب .

الأبرياء الذين لا يخالفون سياسة الكرملين بحرف واحد ولا يكفون عن الافتراء على خصومه هم أبرياء والله العظيم .

سلمنا يا أستاذ .

فأين هم الشيوعيون غير الأبرياء يا ترى ؟ أين هم بالله عليك ؟ .

أغير موجودين ؟ مستحيل !

أموجودون ولكنهم غير هؤلاء ؟

لعلهم كذلك . ولعلهم يلبسون طاقية الإخفاء . ويهمسون تحت الأرض أو يخدمون الشيوعية بالصلاة والدعاء .



# مذاهب التطور

« . . قرأت فى إحدى المجلات مقالا عن لامارك جاء فيه أنه قام فى الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٤٨ مذهب جديد فى التطور قريب الشبه جداً بمذهب لامارك فى توارث الصفات المكتسبة يقوم هذا المذهب على اعتبارات سياسة جدلية مادية ويتعارض مع قوانين الوراثة المعروفة ، وقد قوبل بنقد مر سواء فى أوربة وأمريكا ، ومن بعض العلماء فى الاتحاد السوفيتى ، وأكبر أنصار هذا المذهب الأكاديمى ليسنكو ، فأرجو أن تتكرموا علينا بتناول هذا المذهب الجديد بشىء من الإيضاح . . »

سعيد أحمد البطرنى

مدرس العلوم بمنوف الثانوية

المذهب الذى يشير إليه الأستاذ ليس فيه جديد فى عالم الفلسفة الماركسية نفسها كما وضعها كارل ماركس وانجلز منذ أكثر من مائة سنة . فإن آراء «ليسكنو» كلها قائمة على التفسير المادى للاجتماع وللحياة ، فليس فى المجتمعات البشرية على رأيهم ظاهرة سابقة أو لاحقة لا تفسرها الظروف المادية الاقتصادية ، وليس فى أطوار الحياة ظاهرة أصيلة أو متفرعة لا تفسرها الظروف المادية الطبيعية ، وكل ما فى الإنسان وفى عامة الأحياء من الخصائص والطبائع والأفكار والأخلاق فإنما هو من أثر البيئة قديماً فى الناسلات Genes والصبغيات Chromosoms التى تتألف منها الخلايا التناسلية ، ولا فرق فى ذلك بين الموروث منها والمكتسب غير فرق الزمان الطويل أو القصير .

وتطبيق هذا الرأى لم يثبت شيئاً جديداً فى مسألة الوراثة بين الأحياء ، ولم يثبت فى عالم النبات غير ما سبقت تجربته فى تحسين البذور وتحويل الفصائل بالتطعيم والتزريع ، وكل ما عدا ذلك فهو لغو أجوف لم يقم عليه أقل دليل .

ولا يتسع المقام لتفصيل هذه التجارب ونتائجها ، ولكن الأستاذ صاحب السؤال يستطيع أن يرجع فى ذلك إلى كتاب العالم البولونى ليوبولد أنفلد Infeld الذى ألفه عن تطور الطبيعيات Evolution of Physics ، وإلى كتاب «موت علم» Death of a science وهو مجموعة من المباحث فى علم الناسلات أو «الجينات» بإشراف البروفسور زيركل Zirkle أستاذ علم النبات بجامعة بنسلفانيا وصاحب التجارب الواسعة فى تدجين النبات .

# التقديس والتشويه فى التاريخ

## القديس ماكلين

. . وهذا ممسوخ قد ظفر بتطويب القداسة على ما يظهر من كهنوت الماركسيين . . هذا هو ماكلين .

كان ماكلين جاسوساً ممسوخاً سكيراً يعمل فى مصر لخدمة الصهيونية ويبذل جهده لإقناع دولته بضرب المصريين والاستيلاء على حكومة هذا البلد لأنهم اجترأوا على مقاومة إسرائيل .

وكتبنا نحن ننكر ذلك فيما أنكرناه فحقت علينا اللعنة من سماء الماركسية السفلية ، لأننا ذكرناه بغير ما ينبغى من التقديس والتطويب .

وكتب إلينا السيد «محمد على أحمد» من شارع بين الصورين يحيينا تحية نشكره عليها ثم يروى لنا نبأ اللعنة التى حقت علينا للمساس بالقديس المظلوم .

قال : « . . ومشينا فى حوارى وأزقة ملتوية رائحة العفونة والقاذورات تزكم الأنوف منها . . ودخلنا الماخور العفن فوجدنا فى غرفة ضيقة بضعة من الأشخاص جالسين ذوى لحى وشعر منفوش بينهم فتاتان . . وقدمنى إليهم على أنى رفيق عاطف» .

إلى أن قال : «إلا أن جادلهم الأكبر ما أنفك أن أرغى وازبد وبدا فى الهذيان والهجوم الحقير على شخصكم الكريم وانتقل إلى مقالكم الهائل عن الكلبين ماكلين وبرجس فقال إن سيادتكم المبجلة هى التى تتهرب من اتهام نفسها . . . وإنكم إلى الآن لم تتزوجوا وإنه يوجد شخص عند سيادتكم سموه عم مرسى وفضحوا لى إحدى دسائسهم وأفعالهم وأنهم لهم دائماً جواسيس فى مجالسكم قاتلهم الله . .» .

وصاحب الخطاب السيد «محمد على أحمد» طيب القلب جداً - كما هو واضح فى خطابه ، لأنه لم يستطع أن يتخيل الهاوية التى ينحدر إليها هذا الواغش البشرى ، فلم يخطر على البال أن إنساناً يتشوه هذا التشويه فيتعصب للصهيونية على قومه ويغضب لمقاومتها وذكر الحقائق عن العاملين لخدمتها .



وقد يشوه الطبع فيبتذل الصدق ويسقط فى حساب الأخلاق وفى حساب الغيرة الوطنية وفى حساب العقيدة الدينية ثم يبقى له أثر من الشعور الآدمى يثير فيه شيئاً من النخوة لمئات الألوف من الأطفال والنساء والشيوخ المشردين على مرأى من بلادهم ليستبيحها شذاذ الآفاق من صنائع الاستعمار .

أما أن يبلغ التشويه هذا المبلغ بمخلوق آدمى فلا صدق ولا وطنية ولا دين ولا مروءة إنسانيةُ فهذا من وراء الخيال - بحق - فى تصور الرجل الطيب كاتب الخطاب .

ولكن كاتب الخطاب يفرط فى الطيبة إذا ظن أن الصدق شىء له قيمة فى كلام الذين يقدسون ماكلين وأشباه ماكلين ، وكثير منه أن يظن بهم الصدق حتى فى دعوى التجسس على بيتى ، فإنى أسكن هذا البيت منذ ثلاثين سنة لم يدخله أحد قط يسمى «عم مرسى» وليس فى وسع أحد أن يخلق «عم مرسى» هذا أو يدل على . . . وهكذا يمتنع الصدق عليهم حتى فيما لا شرف للصادق فيه ، وأما الزواج والعزوبة فما دلالتهما إن صدقوا أو كذبوا ؟ ألم يكن ماكلين من المتزوجين ؟

والعبرة من قصة القديس ماكلين هذه أنها تبين «لزوم» الماركسية لهذا الواغش الممسوخ من الآدميين .

فلا يستطيع مخلوق يعلم أنه ساقط فى حساب الخلق والوطنية والدين والشعور الإنسانى ثم يحتمل هذا الخزى دون أن يبخع نفسه بيديه .

فإذا كانت الماركسية تنقذه من هذا الخزى وتحسبه شرفاً له فهى أحق بضرب المثل من تهافت الغريق على القشة فى التيار الجارف . وغير عجيب أن يتهافت عليها الممسوخ المشوه وهى بديل عنده من الخزى والانتحار .

وأود فى ختام هذه الكلمة أن أهدئ من غضب الرجل الطيب وإخوانه لأنهم لا يريدون أن يسمعوا كلمة تكدرهم عن كاتب هذه السطور ، فالكلمة التى تكدرهم فى الواقع هى كلمة ثناء علينا تخرج من فم واحد مع الثناء على ماكلين وأشباه ماكلين . وما يضيرهم أن يصبح كاتب هذه السطور ويمسى ملعوناً مكذوباً عليه ممن يوزن ثناؤهم بذلك الميزان .

## من عالمنا.. إلى العالم الآخر*

أذاع البرق من أمريكا ، منذ أسابيع ، خبراً مفصلا بعض التفصيل عن كشوف جديدة فى كوكب المريخ ، وصل إليها أحد العلماء الأمريكيين ، فوجدنا أن تلك الكشوف مشروحة فى الكتب الفلكية المبسطة وغير المبسطة التى طبعت قبل عدة سنوات ، ونقلنا ما أثبته الفلكيون فى تلك الكتب عن لون الكوكب وعن الماء والأكسيجين الطليق فيه وعن النبات الذى يجوز أن ينبت فى جوه ، ومنه ما هو مذكور باسمه كالصبير وجزار الصخر أو زهرة الحجر التى يعرفها أبناء الكرة الأرضية .

ومن الواجب أن نقول إن تلك الكشوف مسبوقة لأنها فى الواقع مسبوقة لا يجوز أن يقال عنها بلسان البرق إنها كشف جديد لم يعرف قبل الآن .

ولكن الأستاذ الفاضل الدكتور «إمام إبراهيم أحمد» مدرس الفلك بكلية العلوم بجامعة القاهرة كتب إلى «الأخبار الجديدة» يرد على ملاحظاتنا ليقول :

«فلنفرض جدلا أن الخبر كما نشر لا يحوى جديداً فإنه ليس بخاف على الأستاذ العقاد أن من أصول البحث العلمى أياً كان نوعه تكرار المشاهدات والتجارب التى أجريت حتى منذ مئات السنين» .

ونقول نعم . . . هذا من أصول البحث العلمى التى لاتخفى على أحد ولا يمكن أن تخفى عليه لو أراد أن يخفيها عن نفسه . فإن البحث العلمى لا ينقطع ولا يبطل فيه تكرار المشاهدة ، ولكن ليس من أصول البحث العلمى فى هذه الحالة أن يقال عن القديم السابق إنه جديد غير مسبوق ، وإنما تقضى أصول البحث العلمى أن يقال إن هذا الكشف يؤيد الكشوف التى سبقته حيثما اتفق التأييد .

وأراد الأستاذ الفاضل أن يدهشنا فقال :

« . . . ولنذكر للأستاذ العقاد على سبيل المثال لا الحصر أن إراتستين Eratosthenes فى حوالى عام ٢٣٠ قبل الميلاد حسب مقدار نصف قطر الأرض

---

* أخبار اليوم : ٨/١٠/١٩٥٥ . وانظر ما يأتى ص١١٥ .



ومع ذلك قد يدهش الكاتب الكبير إذا علم أن الأبحاث فى هذا المضمار لا تزال جارية باستخدام وسائل البحث الحديث لمعرفة مقداره بدقة أكثر» .

وللأستاذ علينا حق الشكر لأنه أراد أن يدهشنا بشىء عجيب فى هذا الزمن الذى لاعجيب فيه .

ولكن هُى الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

ولكنه نوى أن يدهشنا فكتب له ثواب النية دون أثرها ومقصدها ، فإن خبراً عن بحوث أراتستين لن يدهشنا لسبب بسيط لا حيلة للأستاذ ولا لنا نحن فيه .

فحكاية أراتستين هذه قد كتبنا عنها قبل أكثر من ثلاثين سنة فقلنا فى فبراير سنة ١٩٢٤ :

«وعلى خطوات من ذلك المقياس بئر أخرى لا تقل عن بئر المقياس خطراً ولا تقصر عنها عراقة وأثرا . . تلك على عهدة الرواة - بئر أراتستين التى اهتدى منها إلى قياس محيط الأرض وأدرك على قاب لمحة فيها ما لا يدركه الآخرون بغير طواف الأعوام والشهور وعرف قبل المسيح بقرنين ما أيده العلم بعد المسيح بقرون» .

كتبنا هذا قبل أكثر من ثلاثين سنة ، وسمعنا قصته قبل أكثر من أربعين سنة ، لأن المكان الذى عرف فيه العالم الأسكندرى زاوية الفلك بين أسوان والإسكندرية إنما كان حيث ولدت ، على مقربة من مسقط رأسى ، ورأيناه وعرفنا قصته على غير اختيار منا كما نرى البيوت والآثار من حولنا ، ثم تتبعنا الجديد فى هذه القصة بعد القديم فلم نر فيه تعديلا لقاعدة ولا تخطئة لنظرية ، ولم نعلم أن دقة أكثر من تلك الدقة أضيفت فى الزمن الحديث إلى القاعدة التى اعتمد عليها العالم القديم ، لأن هذه القاعدة لا تتغير ولن تتغير ولا يمكن أن تتغير ، وهى أن العلم بطول الجزء من المحيط يعرفنا بطول المحيط كله . .

هذه هى القاعدة التى اعتمدها أراتستين ، وهى لا تتغير فى هذا الزمن ، ولن تتغير أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وليس الخطأ منها ولكنه من حسبان أسوان واسكندرية على خط مستقيم ومن حسبان الأرض كرة تامة التدوير .

ولا شأن للآلات الحديثة بهذه الحقيقة لأن تغيير الآلات لا يغيرها ، ولكنه يغير قياس المسافات الأرضية سواء أخطأ أراتستين أو أصاب ، وكذلك تتجدد المقاييس والضوابط ولا يحتاج العلم بالجديد منها إلى أكثر من النظر بالعين .

والشىء الذى لم نفهمه هو قول الأستاذ الفاضل إن النتائج «جاءت بما يعتبر كشفاً جديداً فى هذه الدراسات . فقد وجد الدكتور سليفر Slipher أن هناك تغيراً كبيراً فى المساحات الداكنة وهى أول مرة يثبت فيها تغير بهذا المقدار» .

فالذى نفهمه أن هناك عالمين يبحثان فى أرصاد المريخ أحدهما يسمى سليفر Slipher والآخر يسمى برسيفال لويل Lowell ، ولا يوجد عالم يسمى سليفر لويل كما جاء فى مقال الأستاذ . . وليس بحث سليفر مقصورا على المريخ وحده ، وإنما يرصد اللون الأحمر فى المريخ وفى غيره ليعلم منه مقدار المسافات التى تبتعد بها كواكب المجرة إذا اختلف لونها وضربت قليلا إلى الاحمرار .

والرأى الذى أشار إليه برسيفال لويل قديم قد عول فيه على رأى العالم الإيطالى شياباريلى Schiaparelli واعتقد بناء على ذلك أن فى المريخ أقنية مصنوعة على أصول هندسية ، وظهر لبعض الراصدين أن هذه الأقنية تحيط بها بقاع زرقاء مخضرة فى بعض الأوقات وسمراء داكنة فى أوقات أخرى ، ونشر هذا كله فى مؤلفات مبسطة أقربها يرجع إلى الطبعة الأخيرة فى السنة الماضية من كتاب «موجز السماوات» لمؤلفيه الثلاثة برنارد وبنيت ورايس ، وكلهم من الرياضيين الفلكيين .

فلا جديد فيما قاله الأستاذ الفاضل أخيراً ولا فيما قاله وكلاء الأنباء البرقية ، ومقطع الرأى أن يذكر لنا الدكتور «إمام إبراهيم» حقيقة الكشف الجديد ووجه القول بجدته من اختلاف المقادير والمسافات .

ويومئذ نستطيع أن نحيله على مرجع سابق يذكر هذا الاختلاف بمقاديره ، أو نعلم حقاً أن الكشف الجديد غير مسبوق فيما علمناه من كتب الفلك التى يقرأها غير المختصين ! .



# أكاذيب السياسة*

وصلت الطبعة الأمريكية من كتاب جنتر Gunther عن القارة الأفريقية Inside Africa .

وجنتر هذا هو صاحب المؤلفات المشهورة عن داخل أوروبة وداخل آسيا وداخل الولايات المتحدة وداخل أمريكا الجنوبية . وما وراء الستار من القارة الأوربية .

وملاحظتنا على هذه المؤلفات أنها حافلة بالمعلومات المباشرة والصور الشخصية والأخبار «الصحفية» التى يفرغها فى قالب التاريخ .

ولكنك لا تستريح إلى أحكامه كما تستريح إلى معلوماته وصوره وأخباره لأنه قلما يخالف أحداً من ذوى الجاه فى بلد من البلدان ، وقد يرضى أكثر من فريق واحد بين ذوى الجاه هنا وهناك .

ومن أمثلة ذلك كلامه عن السودان .

فالسيد عبد الرحمن المهدى عنده زعيم لا يحب أن «تبتلع مصر بلاده» .

وماذا عن ابتلاع الإنجليز ؟ .

لا شىء . . ! ولا حرف . . !

وعنده أن المهدى الكبير زعيم مات قبل الأربعين ولكنه أفلح فى إنقاذ السودان من طغيان المصريين .

وأجهل المؤرخين المعاصرين يستطيع أن يعلم أن أبناء مصر والسودان قد ثاروا على طغيان واحد ، وأن ثورة مصر على ذلك الطغيان كانت سابقة لثورة السودان بسنوات .

وندع ما عدا ذلك من أكاذيب السياسة التى يجريها مجرى الوقائع المسلمة فعنده أن الإنجليز تدخلوا فى السودان لأن مصر فزعت إليهم وتوسلت إليهم أن ينقذوها من ورطتها فى الجنوب .

* أخبار اليوم : ١٠/١٠/١٩٥٩ .

وأجهل المؤرخين المعاصرين مرة أخرى يعلم أن الإنجليز أكرهوا مصر على «الفزع» وأسقطوا وزيراً لأنه لم يقبل أن يفزع كما أرادوا .

إلا أننا – بعد هذه الأباطيل – نحمد الله على اليوم الذى دخلت فيه أفريقية فى حساب كتاب الغرب ، فكتبوا عنها كما يكتبون عن قارات الدول القوية ، بل زادوا فى نصيبها على نصيب تلك القارات لأن كتاب جنتر عن القارة «المجهولة» أضخم وأهم من كتبه الأخرى .

لقد كانت هذه القارة مجموعة من الملحقات بانجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال ، وكل من مد يديه لإلحاق القسم المتفق عليه من أقسامها ، أو من أشلائها .

فاليوم هى «كيان» مقصود لذاته . غير محسوب على سادته ، يبحثون عن مستقبله من داخله ولا يكفيهم أن يبحثوا عنه فى لندن وباريس وبرلين ، وغيرها من عواصم السادة المستعمرين .



# دهشة أخرى*

الآن أدهشنا «الدكتور إمام إبراهيم أحمد» بعد أن أراد أن يدهشنا فى المرة الأولى فأخطأ الهدف .

أراد أن يدهشنا بخبر عن «إراتستين» وهو لا يعلم أن العلامة الفلكى القديم «بلدينا» على وجه من الوجوه ، وأننا جلسنا حيث كان يجلس ونظرنا على التحقيق إلى مساقط الأشعة الشمسية حيث كان ينظر إليها ، وسمعنا بقصته قبل أربعين سنة وكتبنا عنه قبل ثلاثين سنة ، وتتبعنا ما يقال عنه وعن نظريته فليس فيها ما يدهشنا فى هذا الزمن الذى لا ندرى هل تقل فيه المدهشات أو تكثر ، وهل تنقص أو تزيد .

أما الآن فالدكتور الفاضل يعوض ما فاته ويدهشنا على غير قصد منه ، دهشة تستحق تعب السطور التى كتبها والتى نكتبها فى الإشادة بها والإشارة إليها .

قلنا فى تعقيبنا على كلام الدكتور «وإنما يرصد اللون الأحمر فى المريخ وفى غيره ليعلم منه مقدار المسافات التى تبتعد بها كواكب المجرة إذا اختلف لونها وضربت قليلا إلى الاحمرار» .

فعلق الدكتور على ذلك قائلا : «لعل الأستاذ الكبير يقصد ما يسمى Doppler Shift وهى تغير موضع خطوط الطيف نحو المنطقة الحمراء فى الطيف والتى يمكن منها حساب السرعة التى يبتعد بها النجم ولا يجعله يضرب قليلا ولا كثيراً إلى الاحمرار ، أم لعله يقصد تغير لون النجم إلى الاحمرار بتأثير مواد ما بين النجوم Interstellar Matter ولكن هذه الدراسة لا تصل بنا إلى استنتاج السرعة التى يبتعد بها النجم» .

## وكله مدهش

وكل ما قاله الدكتور فى هذا التعليق مدهش حقاً لأنه ينفى أموراً مقررة فى كتب الثقات من الرياضيين والفلكيين ، وعليهم نعول فيما نذكره عن هذه الملاحظات .

فاللون الأحمر يتزايد كلما ابتعد النجم أو كلما أسرع مبتعداً عنا ، ونحن ننقل له سطرين بنصهما الإنجليزى من الصفحة التاسعة والتسعين من كتاب طبيعة الكون لمؤلفه فريد هويل Hoyle حيث يقول :

* أخبار اليوم : ١٩٥٥/١٠/٢٢ . وانظر ما مضى قريباً ص ١١٠ .

In fact, by measuring the degree of the reddening we can deduce the speed with which a body is receding.

وترجمتها الحرفية : «نحن فى الواقع بقياس درجة الاحمرار نستطيع أن نستخرج السرعة التى يتراجع بها الجرم عنا» .

وقد وضح الأستاذ هويل ما يعنيه فقال : «ولعلك لاحظت أن الصفارة فى القطار المقبل لها حدة صوتية أعلى من الصفارة فى القطار المدبر . . فالنور الذى يصدر من مصدر متحرك له هذه الخاصة بعينها ، فحدة النور تهبط أو كما نقول عادة تحمر كلما كان المصدر يتحرك مبتعداً عنا . ونحن نلاحظ أن النور من المجرة يحمر وأن درجة الاحمرار تزداد على نسبة ابتعاد المسافة عنا» .

فإذا لم يكن معنى هذا أن الكوكب يضرب إلى اللون الأحمر فماذا يكون معناه؟

ولقد كررنا أن الكتب التى نقرأها فى مسائل الفلك هى الكتب الموضوعة لغير المختصين ، ولكن لا يفهم من ذلك أن الذين كتبوها غير مختصين بعلومها لأن الواقع أنهم جميعاً من أكثر المختصين اختصاصاً بما يكتبون فيه .

والأستاذ هويل يدرس علومه فى كامبردج ويقوم بالرصد أحياناً فى أكبر المراصد العالمية وهو مرصد مونت بالومار Palomar ويؤلف فى هذه الموضوعات خاصة ومنها كتابه فى طبيعة الكون وكتابه فى المباحث الجديدة عن طبيعيات الشمس وكتابه عن حدود علم الفلك ، ورسائله القيمة التى يقرأها فى المعاهد الرياضية الفلكية وتلقى كل عناية واحترام .

والملاحظة التى ينفيها الدكتور إمام منشورة فى كتاب بلغ من ذيوعه أنه صدر فى ثلاث طبعات ، وأنه كان موضوع التعليقات الإذاعية والصحفية والتقريظات من كبار العلماء .

أما إحمرار لون النجم بتأثير المواد المنبثة فى أجواز الفضاء فلم يكن مما قصدناه فى مقالنا السابق ولكننا ندهش لقول الأستاذ «إن هذه الدراسة لا تصل بنا إلى استنتاج السرعة التى يبتعد بها النجم» .

لأن هذا الغبار Dust المنبث فى الفضاء يمكن أن تعرف مواضعه ويمكن لذلك أن تعرف لحظة دخول الكوكب فيه ولحظة خروجه منه ، وتقاس بذلك سرعته كما تقاس سرعة كل كوكب فى الفضاء بالنسبة إلى المواقع التى يعبرها .



وهنا أيضاً نعتمد على مصدر من مصادر الثقات التى يكتبها المختصون لغير المختصين ، بل هذا المصدر الذى نعنيه مكتوب للمختصين بأسلوب نفهمه نحن ويفهمه من لم يتفرغوا للدراسة الفلكية ، ونعنى به مبحث الأستاذ كاهن Kahn فى العدد الرابع والثلاثين من مجلة أخبار العلوم إذ يتكلم عن مواد ما بين النجوم Interstellar Material وعن علامات الألوان بالنسبة إليها فيقول : اللون الأزرق أسرع زوالا من اللون الأحمر ، وأن هذا ولا شك وسيلة من وسائل الاستنتاج لا يلزم أن تكون وسيلة مباشرة ولكنها مؤدية إلى النتيجة من طريق غير بعيد .

ونعود فنقول إن الدكتور كاهن مختص بمراقبة المواد التى تتخلل الفضاء بين النجوم ويدرس الفلك بجامعة مانشستر ويشترك مع كبار الأساتذة الإنجليز والألمان وآخرهم الأستاذ أورت Oort بليدن Leiden وهو مرجع للعلماء فى هذه البحوث .

وبعد فالذى نود أن يعلمه الدكتور الفاضل أننا لا نقرأ هذه الدراسات لنكون فلكيين أو رياضيين ، ولكنه يستطيع أن يوقن كل اليقين أننا لا نبيح لأنفسنا أن نخط كلمة فيها ما لم نكن معتمدين فيها على مراجعها ، والتبعة بعد ذلك على المراجع إن كانت تبعة ، ولكنها إذن تبعة لا يسلم منها إنسان .

## قزل باش

ومن قزل نجم ننتقل إلى قزل باش .

أما «قزل نجم» فهو المريخ .

وأما «قزل باش» فهو الرأس الأحمر باللغة التركية ، وهو انتقال إلى قصة الطربوش ، لأن هذا الغطاء الأحمر للرءوس لا يريد أن يحتجب عن الأعين بسلام .

قلنا فى مقال لنا : إن الترك العثمانيين أخذوا الطربوش من اليونان ، وأنه الآن يفارق الرءوس بعد أن تركه اليونان والعثمانيون وأوشكنا أن نتركه نحن المصريين .

فكتب إلينا السيد «حسن نصرت» يقول : إن الترك عرفوا غطاء الرأس الأحمر من غير اليونان ، وأن طائفة منهم فى آسيا الصغرى تلبسه وتسمى من أجل ذلك «قزل باش» وأن الطربوش باق إلى اليوم بين المسلمين فى بلاد البلقان وما جاورها .

والسيد «نصرت» لم يخطئ حين قال إن الترك اتخذوا غطاء أحمر للرأس غير الطربوش .

ولكن الفرق بعيد جداً بين «القزل باش» والطربوش اليونانى على أنواعه . لأن

«القزل باش» يطلق على أصحاب طريقة دينية تلبس العمامة الحمراء ذات العذبات الاثنى عشر وتعتقد أنها عمامة الإمام على بن أبى طالب عليه السلام وأن العذبات فيها إشارة إلى الأئمة الاثنى عشر من ذريته ، ولم يلبس هذه العمامة أحد من سلاطين الترك العثمانيين ، بل لبسها على نقيض ذلك شاهات الفرس الصفويون لأنهم من الشيعة على خلاف الترك العثمانيين فإنهم سنيون وبينهم وبين القائلين بالإمامة الاثنى عشرية أو الإمامة على إطلاقها خلاف شديد .

وهذه الطريقة الدينية تنطوى على أسرار تكتمها ولا توافق السنة ولا الشيعة فى عقائدها وشعائرها ، ومنهم من يصوم الأيام الأولى من المحرم - أول السنة الهجرية - ولا يصوم شهر رمضان ، ودعواتهم التى يرتلونها فى الأناشيد تردد فيها أسماء على وعيسى وموسى وداود . وكأنهم يميلون إلى التوحيد بين الأديان وإن كانوا لا يعلنون ذلك لغير «الواصلين» .

ولم يخطئ السيد «نصرت» أيضاً حين قال إن الطربوش باق بعد زواله من البلاد التركية وأوشك زواله من البلاد المصرية ، لأنه أصبح شعاراً مميزاً للمسلمين البلقانيين ، يلبسونه فى مواسمهم وأعيادهم ولا يلبسون القلبق أو القبعة ، ونذكر مما كتبته القصاصة الإنجليزية ربيكا ويست Rebecca West فى رحلة البلقان أن مسلمى الصرب كانوا يتعمدون لبس الطربوش أثناء زيارة رئيس الجمهورية التركية لبلادهم ولا يقابلونه بالهتاف ولا بالتحية ، كأنهم يستنكرون منه أن يخلع هذا الشعار ولا يلبسه إكراماً لهم أثناء هذه الزيارات الرسمية «القومية» .

## وفى أفريقية الوسطى

على أننا نذكر الآن أن الطربوش لا يزال معدوداً فى الطليعة بين أغطية الرأس التى يحتفل بها أبناء أوغندة وأفريقية الوسطى ، وقد ذكرنا ذلك يوم مرور «الكاباكا» أى ملك بوغاندة بمطار ألماظة ، فإنه يلبس الطربوش أحياناً كما يلبسه جنوده الوطنيون ، وقد تختلف ألوانه بعض الاختلاف فلا تنحصر فى اللون الأحمر كطرابيشنا المصرية . ولكنه فى قالبه وشكله طربوش مصرى لا تختلف فيه عينان .

## هل لابد من غطاء رأس ؟

والحق أنه سؤال لابد أن نوجهه إلى أنفسنا بعد ما رأيناه من خاتمة عهد الطربوش .

فهل نترك الطربوش ولا نخلفه «بغطاء رأس» على الإطلاق ؟ وهل يبقى فريق منا بالعمامة وفريق منا عراة الرءوس بغير شارة قومية لغير المعممين ؟ .



لقد كان الباحثون فى توحيد الزى يتجهون فى بحثهم وجهة غير صحيحة إذ يظنون أن الأوربيين موحدون فى غطاء الرأس وأننا نحن المصريين خاصة غير موحدين .

فتسمية الغطاء على الرأس بين الأوربيين باسم واحد - وهو القبعة - لا يعنى أنهم متفقون فى زى واحد ، فإن الفرق ما بين قبعة وقبعة أبعد من الفرق بين غطاء الرأس فى الهند وغطاء الرأس فى قطر من الأقطار الأوربية ، وإذا نظرنا إلى القبعة بأشكالها وألوانها والأنسجة أو الجلود التى تصنع منها فقد يجتمع منها مائة شكل أو تزيد ، ولكننا إذ حصرنا أغطية الرأس المصرية لم تختلف هذا الاختلاف ، ولم يكن منها - عدا العمامة والطاقية - إلا طربوش واحد بلونه وشكله ونسيجه متشابهاً على جميع الرءوس .

فمسألة التوحيد فى غطاء الرأس عندنا ليست بالمشكلة التى نبالغ فيها بالقياس إلى أغطية الرأس عند غيرنا .

ولكن الأوربيين يخلعون القبعة فى الطريق وفى محل العمل وفى البيوت ويحسبونها مع ذلك «غطاء للرأس» لا يزال على هذا الاعتبار كما كان قبل القرن العشرين .

أما نحن فنخلع الطربوش ولا نتخذ لنا غطاء قومياً للرأس يحل فى محله ، أو نتمثل به قوميين بغطائنا الخاص كما يتمثل الأوربيون «مقبعين» سواء لبسوا القبعات أو حملوها فى اليد أو تركوها فى البيوت .

ولا اعتراض لنا على زى من الأزياء يقع عليه الاختيار بلا تفرقة بين الطربوش والطاقية واللبدة والعمامة ، ولكن كيف يا ترى يقع هذا الاختيار ؟ .

إننا نغتبط بحرية الفرد فى ملابسه أمام قيود المجتمع التى لم يكن لها معنى فى العصور الماضية .

ولكن الانتقال من تلك القيود إلى الفوضى التى تلغى وحدة المجتمع لا تؤمن عقباه على الحياة الاجتماعية فى الشئون الجدية التى تتماسك عليها بنية الأمة .

والشعائر والرموز حقيقة لاننساها ولا نستطيع أن ننساها . فإن المجتمع الذى لا يذكرنا بوجوده وحقوقه بشىء يواجه النظر والخيال يسهل نسيانه فى غير هذه الظواهر التى نظن لأول وهلة أنها ليست ذات بال .

وقبل أن نقول ذهب الطربوش يجب أن نتحسس جوانب رءوسنا لنعلم ماذا نضع عليها فى مكان الطربوش ؟ .

## المنظمة الشيطانية*

أقوى علامة على إدبار الصهيونية أن دعاتها يهوشون الآن باسمها ويعترفون بوجودها .

كانت الصهيونية العالمية تعمل فى الخفاء وهى واثقة من نجاحها مطمئنة إلى وسائلها التى تملكها فى كلتا يديها ، وكانت تفزع من ظهور هذه الوسائل لأنها بطبيعتها لا تستطيع العمل فى ضوء النهار .

ولا نزال نذكر الحوار الطويل الذى دار بين الكاتب الإنجليزى شسترتون وبين دعاة الصهيونية فى إنجلترا لأنه ردد كلمة اليهودية العالمية فى بعض أقواله ، وكان خلاصة ما كتبه أولئك الدعاة وكرروه أنهم يجلون أديباً كبيراً مثله أن ينخدع بالأوهام التى تتلقفها أفواه العامة على غير معرفة ، فإن «اليهودية العالمية» شىء لا وجود له فيما زعموه .

أما اليوم فالخواجة (شاريت) يعلن وجود الصهونية العالمية ويحتج على «شكوسلفاكيا» باسمها ويكرر الاحتجاج بهذا الاسم فى الخطب والتصريحات .

تلك ولا ريب علامة خير .

تلك علامة على أن الصهيونية العالمية تحتاج إلى إثبات وجودها ولفت النظر إليها ، وعلامة على أن هذه الصهيونية العالمية تعمل بيديها على هدم البقية الباقية منها ، لأن اليوم الذى تزول فيه هذه «المنظمة الشيطانية» هو اليوم الذى تنكشف فيه للنور .

إن الصهيونية العالمية آخذة فى الضعف لأسباب كثيرة ، ولكن الأسباب الدولية أهمها وأبقاها .

كان للصهيونية شأن كبير يوم كانت بريطانيا العظمى طرفاً أصيلا فى كل حرب عالمية ، فكان الصهيونيون فى أنحاء العالم يساومونها على المعونة الاقتصادية وعلى نشر الدعوة لمصلحتها فى أرجاء الكرة الأرضية .

* أخبار اليوم : ١٩٥٥/١٠/٢٤ .



إلا أن بريطانيا العظمى لن تكون اليوم طرفاً أصيلاً فى الحروب العالمية أو المشكلات الكبرى .

إنما الطرفان هما الولايات المتحدة وروسيا الحمراء ، ولا تستطيع الصهيونية العالمية أن تحارب الولايات المتحدة من معسكرها الأكبر فى نيويورك ، لأنها لو فعلت ذلك هدمت بيتها على رأسها وتعرضت للاضطهاد المشروع بل للمذابح الشعبية .

وهى كذلك لا تستطيع تهديد روسيا لأن الشيوعية سلاح من أسلحة الصهيونيين يمهدون به للسيادة على العالم ، وقد رأينا نحن فى مصر صهيونيّاً من أصحاب الملايين ينشر الدعوة الشيوعية ويشن الغارة على رأس المال . .

وقد تعدل الصهيونية عن موقفها هذا مع روسيا فتحاربها وتشوه سمعتها ، فلا تبالى روسيا من حملتها هذه شيئاً لأنها حملة قائمة على كل حال .

هذه أهم الأسباب الدولية التى تؤذن بإدبار الصهيونية .

وإسرائيل نفسها سبب أقوى من كل سبب ، لأنها مخلوق متنافر لا يعيش إلا ليثير الشغب من حوله ويجر البلاء على نفسه .

والبقية فى حياتك يا خواجة شاريت .

وفى حياة بن جوريون وكل بن صهيون .

## الشرق قبل ٥٠ سنة .. وبعد ٥٠ سنة*

من دلائل التطور فى الوعى «الشرقى» سؤالان تلقيتهما على أثر ما كتبته فى الأسبوع الماضى عن اليابان وما كان لها من الحب والكراهية فى نفوس الشرقيين ، وفحوى السؤالين متقارب فى معناه لأن الغرض منه فهم الموقف الطبيعى للشرق كله أمام دوله الكبيرة التى تتعرض لمطامع الغرب كما تتعرض لها أمم الشرق الصغيرة ولكن الدول الكبيرة فى الشرق قد تكون لها مطامعها أو سياستها الاستعمارية ، فما هو الموقف الطبيعى لكل أمة شرقية بين الشرقيين ؟ .

هذان السؤالان ، كلاهما يذكرنى بخطاب وصل إلىّ من إحدى المدن السورية «يشتمنى» فيه كاتبه لأننى أعربت عن خيبة الأمل فى اليابان قبل عدة سنوات ، إذ قلت إنها ترمى إلى استعمار القارة الآسيوية بدلا من قيادة حركة التحرير فيها ، وتنادى بأن آسيا للأسيويين وكأنها تفهم من ذلك أن آسيا لليابانيين .

وخلاصة الشتائم التى تضمنها الخطاب أن اليابان دولة شرقية عظيمة يشرف بها الشرق ، فلا يجوز لنا أن ننحى عليها أو نلومها ، كأنما نسى كاتب الخطاب أن الأمم التى تفتتحها اليابان وتخنق حريتها أمم شرقية . لو نهضت فى طريق التقدم سلم الشرق كله وسلمت اليابان فى المقدمة من طغيان الاستعمار الغربى بمختلف الألوان والأسماء .

* * *

### بين التاريخ وشهادة العيان

ولم يشعر أحد بخيبة الأمل فى هجوم اليابان على أمم الشرق كما شعرنا بها نحن الذين شهدنا نهضتها وحضرنا طلائعها وعرفناها معرفة العيان ، قبل أن تصبح من معارف التاريخ .

كنا فى نحو الخامسة عشرة يوم نشبت الحرب بين اليابان وروسيا ، وكنا نتلقف الصحف لنقرأ فيها أخبار انتصارها فى البر والبحر ، وأخبار وقائعها الحاسمة حول المعاقل الكبرى فى الشرق الأقصى .

* الأخبار : ١٩/١١/١٩٥٥ .



ولا نذكر أن الشرق من أقصاه إلى أقصاه شملته هزة من الفرح كتلك الهزة التى شملته أثناء الحرب اليابانية الروسية ، لأنه اعتبرها حرباً شرقية غربية وإن لم تكن روسيا مثلا صحيحاً للغربيين أو للأوربيين .

* * *

### مصطفى كامل يؤلف

لم يكن مصطفى كامل يؤلف الكتب لاشتغاله بالكتابة الصحفية والخطب الوطنية والسياحة فى الغرب للحملة على الاحتلال البريطانى حيث استطاع . ولكنه بعد نشوب حرب اليابان ألف كتابه عن «الشمس المشرقة» ويعنى بها اليابان لأنها تعرف باسم بلاد الشمس المشرقة أو الشمس الطالعة ، وقال فى مقدمته : «كان البعض منا معاشر الشرقيين يقول ، ويلقن هذا القول للصغار والكبار ، أننا أمم انقضى دورها ودالت الأيام على مدنيتها ومحا الزمان وجودها السياسى وليس فى وسعها التسلح بمدنية أوربا ومقارنتها بها . وأنه لابد لها من الاستسلام للغرب وقبول حكمه وسلطانه بلا عمل للحاضر وبغير جهاد فى سبيل المستقبل ، فقامت أمة اليابان مكذبة لهذه الدعوى منادية الشرقيين أجمعين بأن طريق الارتقاء ميسر لقصاده وأن من جد وجد وكل من سار على الدرب وصل ، وتساءل الناس بدهشة وعجب : من هذا الشعب الذى خرج من القبور ليزعج الأحياء بأصوات مدافعه وقنابله وحركات جنوده فى البحر والبر ومطالب ساسته وتغلبه على الدولة التى ظنت وظن العالم معها أنها لا تغلب وفوزه هذا الفوز الذى حارت فيه العقول وكادت الدنيا ترتاب فيه ، وكيف أدرك هذا الشأو فى سنوات قلائل وجارى الغرب فى أمور وسبقه فى أخرى» .

وهذا الكتاب قد صدر قبل خمسين سنة ، ولكنه أحد الكتب القلائل التى بقيت عندى ولم تذهب مع ما ذهب من كتبى المقتناه مرات بعد مرات .

* * *

### وحافظ ينظم

ونظم حافظ إبراهيم أكثر من قصيدة فى مفاخر اليابان قال فى إحداها على لسان فتاة يابانية :

إن قومى استعذبوا ورد الردى     كيف تدعوننىَ ألا أشربا

أنا يابانيـــة لا أنثنى     عن مرادى أو أذوقَ العطبا

أخدم الجرحى وأقضى حقهم     وأواسى فى الوغى من نكبا

هكذا «الميكاد» قد علمنا     أن نرى الأوطان أمـا وأبا

ملك يكفـيك منه أنه     أنهض الشرق فهز المغربا

وقال فى قصيدة أخرى :

أتى على الشرقى حين إذا     ما ذكر الأحياء لا يذكر

ومر بالشرق زمان وما     يمر بالبـال ولا يخطر

حتى أعاد «الصفر» أيامه     فانتصف الأسود والأسمر

وهاجرت من مصر طائفة من الشبان للتطوع فى جيش اليابان ، وبقى منهم شاب هناك تزوج من يابانية واسمه «محمد فضلى» على ما أذكر فثابر على الكتابة إلى الصحف المصرية زمناً وبقى غيره ممن عاشوا هناك ولم يكتبوا إلى الصحف ، وسمعنا أن بعضهم عاد بعد حين .

من هذا وأمثاله يستطيع الناشىء فى هذا العصر أن يعرف مبلغ الأمل فى نهضة الشرق على يدى اليابان .

* * *

## مصيبة المظاهر

ولكن المصيبة كلها فى المظاهر أو فى «الوجاهة» المصطنعة التى تنخدع بها الدول كما ينخدع بها آحاد الناس .

كان احتلال المستعمرات «وجاهة» عالمية فى عرف الدول التى تريد أن تدخل فى زمرة الدول الكبار .

مستعمرة . . أى مستعمرة . . ! مستعمرة والسلام . . لابل مستعمرة فى الواقع والحرب الضروس والموت الزؤام .

وكثير من هذه الدول كان يستطيع أن يعيش بغير مستعمرات لولا هذه الوجاهة المكذوبة التى اصطلحت عليها .



وكثير من عمد الريف عندنا كانوا يستطيعون أن يعيشوا بغير لقب الباشوية أو البيكوية الذى خرب بيوتهم وبدد ثرواتهم وأغراهم بالمظاهر الكاذبة فى غير حاجة إليه .

ويحسن الظن كثيراً بالدول الاستعمارية من يظن أنها أرجح عقولا من عمد الريف فى مسألة المظهر والوجاهة .

كلهم والله قريب من قريب .

ولو أنك أحصيت ما أنفقته هذه الدول فى القرن العشرين على السلاح والحرب وما كسبته من مستعمراتها لرجحت كفة النفقات أضعافاً على كفة المكاسب والأرباح .

وهذا مع سفك الدماء وإفشاء القلق والاضطراب ، وتعويق نهضات التقدم والعمران .

وهكذا أصيبت اليابان بحمى الوجاهة الكاذبة ، كما أصيبت بها الدول التى ظهرت أخيراً فى المضمار لتثبت «وجاهتها» ومساواتها للدول الكبار .

وهكذا أصبحت إيطاليا تستعمر طرابلس ، لأنها ليست بأقل من فرنسا التى تستعمر تونس ! .

وهكذا أصبحت ألمانيا تستعمر المجاهل فى القارة الأفريقية لأنها ليست بأقل من إنجلترا التى سبقتها إلى استعمارها .

ولسوء حظ هذه الدول – من طالبات الوجاهة الاستعمارية – أنها جاءت فى الزمن الأخير ، والاستعمار كما كان خلال القرن الثامن عشر فى دور الاحتضار ، فنكبت جميعاً ولم تستفد من استعمارها كما استفادت الدول التى سبقتها فى غفلة الزمن ، مع جهالة الشعوب التى نكبت بغارات الغاصبين .

## بديهيات لا نبوءات

ولا أريد أن أدعى أننى أتنبأ بما يحدث بعد سنوات ، ولكننى أريد أن أقول إن البديهيات ظاهرة لمن يلتفت إليها ، وقليلا ما يلتفت الناس إلى المحسوسات فضلا عن البديهيات .

فمنذ عشرين سنة كتبت «رجعة أبى العلاء» وتخيلت فيها المعرى عائداً إلى العالم يسبح فى أرجائه بعد أن حرم نفسه السياحة فيه أيام الحياة ، وقلت عنه إنه

«كان فى أرض نيبون يتأفف ويتبرم من كل شىء ومن غير شىء ، ولم يزل مع تلميذه على حذر وامتعاض حتى هجرا أرض نيبون إلى أرض الصين ، وأقاما فيها برهة بين الفتن والثورات والمجاعة تارة والقحط تارات ، ولكنهما كانا أقرب إلى راحة البال وشهود الأحوال ، لأنهما كانا يشهدان فى الصين جهداً يسر الناظرين أن يبلغ تمامه . أما الجهد الذى كانا يشهدانه فى أرض نيبون فقل أن يكون فى تمامه سرور للناظرين ، ولا سيما الحكماء» .

ثم يسأل التلميذ أستاذه عن انتصار اليابان وهزيمة الصينيين فيقول الأستاذ المعرى :

«وما يدريك لعل أهل نيبون يخدمون أهل الصين بهذه الهزيمة وهم لا يشعرون ؟ لقد كان هؤلاء المنهزمون شتيتاً من الخلق فجمعتهم الهزيمة فأصبحوا أمة تنضوى إلى لواء واحد ، فإذا بالمنتصرين يخافونهم بعد همس سنوات تجردوا فيها لاتخاذ الأهبة وتوحدوا أو كادوا يتوحدون ، فكيف يكون شأنهم لو تجردوا لاتخاذ الأهبة متوحدين خمسين سنة لا خمس سنوات ؟ . . . علم الله لولا أن أهل نيبون يخافونهم ويفزعون من غدهم لما عاجلوهم بالعدوان ، وما أخالهم مع ذلك آمنين عقبى الأمور . . . »

## وتركيا من قبل

لقد كنا نحذر هذه العقبى على بلاد الشمس المشرقة قبل عشرين سنة ، وكنا نتمنى لبلاد الشرق كله أن تعصم نفسها عن غوائل الاستعمار وعواقبه فتدفع عنها المستعمرين ولا تشتهى تلك الشهوة الخبيثة التى تغريها بمحاكاة أولئك المستعمرين .

وقبل نكبة اليابان كنا نكتب فى مجلة البيان - سنة ١٩١٢ - عن مستقبل الدولة العثمانية فنقول بعد هزيمة البلقان : «لو كانت الدولة العثمانية شجرة لا تنبت إلا فى أوربة لحق لهم ألا يرجوا منها بعد الآن ثمرا ، ولكنها شرقية المنبت ، وهذه أرومتها لا تزال فى الشرق ، وما هذه الولايات الأوربية إلا فروع منها لا يميتها انفصالها» .

ثم نقول : «ليس من حسن السياسة ولا مما يوافق الدولة أن تقسر شعوبها على الاندماج فى بنيتها قوة وغضبا . والعقل العصرى لا يفهم من معنى الإخلاص أن يتقيد الشعب بالولاء لحكومة تحكمه لمصلحتها لا لمصلحته» .



## سياسة الأحلاف

وأخوف ما كنا نخافه على أمم الشرق منذ ذلك الحين ، سياسة الأحلاف بين المعسكرين ، فكتبنا فى ذلك المقال قبل نيف وأربعين سنة . «إن المحالفة لا تؤكد للدولة إلا عداوة من تخالفه ثم إنها لاتكفل لها صداقة من تحالفه . . . وليعلم العثمانيون أن تلك الدول لا تعضدهم ولا تتخلى عنهم إلا لمصلحتها . فإن عنّ لها وجه المصلحة فى تأييدهم نصرتهم سواء كانت معهم أو عليهم ، أو عن لها وجه المصلحة فى التخلى عنهم خذلتهم : سيان المحالف منها والمخالف ، فخير للدولة أن تدير شراعها مع كل ريح من أن تتقيد بريح واحدة ، وأنفع لها أن تكسب عطف الرأى العام فى أوروبا كلها من أن تكسب الود الظاهر من بعض حكوماتها» .

كتبنا هذا وودنا لو تعول الدولة العثمانية على منبتها فى الشرق قبل أن ينهض مصطفى كمال لتعمير آسيا الصغرى وقبل أن يتخذ العاصمة الحكومية فى أنقرة بثمانى سنوات .

وكل ما نتمناه لمن ينظرون تحت أقدامهم ولا ينظرون إلى أمامهم أن يبقوا بعد انتقادهم واعتراضهم ، بضع سنوات على الدوام ، فيروا بأعينهم أن مثالب الانتقاد والاعتراض ترتد إليهم ولا تصيبنا بشرار ولا دخان . فهم على خطر من روادع الزمن وهم يحسبون أنهم على هدى وصواب .

* * *

## خمسون سنة إلى الأمام

والآن وقد مضت خمسون سنة بين النصر والهزيمة والغرور والندم والعظة والنسيان يستطيع الناظر إلى الماضى أن يقول عن يقين إن اليابان قد ضلت الطريق وأنها سلكت على الطريق الخطأ ، واغترت بمظاهر الوجاهة الكاذبة ، فضيعت فى سبيلها مصلحتها الحقيقية وأنفقت ملايين الملايين من الأموال على عدة الحرب التى تتغلب بها على جيرانها فلم تربح من هذه النفقات ما يساوى عشر معشارها . ولم تكن لتربح شيئاً يذكر إلى جانب الخسارة لو أنها مضت فى طريقها ولم تنقطع بها الهزيمة فى وسط الطريق .

واليابان اليوم ضعيفة مفتقرة إلى العون ولكنها لا تبقى على هذه الحال ولا بد لها من عودة إلى القوة والثروة ، فإذا عادت وجدت إلى جانبها فى آسيا دولا كبارا

تقوم بين أمم كبار لا مطمع فيها لطامع من المشرق ولا من المغرب إلا على غرر وأخطار .

ستجد الصين ذات الملايين التى تزيد على أربعمائة ، وتجد الهند ذات الملايين التى تقارب الأربعمائة ، وتجد الباكستان وعدتها نحو مائة مليون ، وأندونيسيا وهى فى قرابة هذا العدد وإلى جوانبها أمم لا تضارعها فى الكثرة ولكنها تضارعها فى العراقة والاعتزاز بالحرية والكرامة .

فإذا كان للماضى عظاته النافعة فأكبر العظات أن تتعلم الأمم الآسيوية الكبرى أنها مسئولة عن سلامة القارة كلها وإلا جنت على نفسها وعبثت بسلامتها ، ونكصت على عقبيها ولم تنتفع بتقدمها ونهوضها إلى مرتبة الدول الغربية العظمى .

وخمسون سنة على نهج الهداية تصنع المعجزات وتأتى بالأعاجيب .

قارة تتساند فى وجه المطامع الغربية ، تكف تلك المطامع عنها وأنف الغرب راغم ، وتتجه بالعالم الإنسانى وجهة الأمان والفلاح ، وتتسلم الزمام من يد الحضارة الغربية التى أؤتمنت عليه فلم تؤد الأمانة لأحد ، ولم تحفظها لنفسها وهى تحسب أنها حافظتها أبداً دون سواها .



# البحث عن سر الحياة *

## حمام التلات «اللى يرجع العواجيز بنات»

### ولادة العذراء

بعد تمهيد متردد أعلنت الصحف التى تنطق بلسان الفاتيكان أن قداسة البابا «بيوس الثانى عشر» رأى السيد المسيح فى يقظته أيام مرضه الأخير الذى عرض له منذ عام وشفى منه بعد أسابيع .

لا نريد أن نفسر هذه الظاهرة ، ولكننا نعتقد أن نظرة صاحب القداسة حجة وثيقة فى مسألة يهتم بها الكثيرون فى هذه الأيام .

ترى أية صورة للسيد المسيح كانت أقرب إلى الصورة التى نظرها صاحب القداسة وعرف أنها صورة السيد المسيح ؟ .

إن قداسة البابا قد رأى من هذه الصور التى تخيلها كبار الأقطاب فى مختلف الأمم والأزمنة عدداً لم يره غير القليل ، وليس فيهم من يضارع قداسته فى الحكم على جودتها وإتقانها من الوجهة النفسية والفنية .

رآها قداسته فى متاحف الفاتيكان ، ورآها فى المعابد التى زارها والمراجع التى اطلع عليها ، وقداسته معروف باطلاعه الواسع على موضوعات الفن والثقافة ، وعنده مع هذا الاطلاع إجلال لمقام السيد المسيح لا يسمو عليه إجلال .

فإذا كانت الملامح التى نظر إليها قداسته تقارب صورة من الصور التى اجتهد أقطاب التصوير فى تخيلها فنظرته ولا شك حجة قوية لترجيح هذه الملامح على غيرها ، وتغليب الصورة المختارة عن مئات من الصور التى تخالفها .

وهذه الظاهرة – ظاهرة الرؤيا البابوية – تأتى فى أوانها على الأقل ليستفيد منها المشتغلون بعرض التواريخ المقدسة على اللوحة البيضاء ، أو المتسائلون عن إمكان عرضها على المسرح فى الروايات التمثيلية . فإننا منذ شهرين نسمع الأسئلة الكثيرة فى هذا المعنى ، يسألها الخبراء الفنيون ورواد معاهد الفن والتمثيل .

* الأخبار : ١٩٥٥/١٢/٣ .

ولقد سمعت الأسئلة فى هذا المعنى فى سياق الكلام على صورة النبى محمد عليه السلام .

فقلت إن الواقع هنا أقرب إلينا من الخيال .

والواقع معروف مستمد من التاريخ الذى لا خلاف عليه ، سواء منه تاريخ النبى وتاريخ صحابته المقربين .

لقد كان حول النبى رجال من طراز أبى بكر وعمر وعلى وعثمان وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبى عبيدة الجراح ومعاوية بن أبى سفيان .

كان كل من هؤلاء الرجال يقيم الممالك ويقود الجيوش ويهزم القياصرة والأكاسرة ويحسن ولاية الأمر فى وطنه وغير وطنه .

وكان منهم رجل كعمرو بن العاص يقول إنه لم يجرؤ على أن يملأ نظره من وجه محمد .

وكان منهم رجل كابن الخطاب عاش إلى آخر أيامه وهو يعيد كلمة «يا أخى» لأنه سمعها مرة من فم محمد فى موقف وداع .

وكان منهم رجل كمعاوية يحتفظ بقلامة ظفر من أصبع محمد ولا يفرط فيها وهو على سرير ملكه .

ولولا أن «شخصيته» تعز على التمثيل لما دانت له هذه الشخصيات زهاء عشرين سنة ، ولا يقال إنها هيبة الإيمان وحده فإن هذه الهيبة لا بد لها من هيبة «شخصية» تناسبها وتناسب قدرها الرفيع فى نظر المؤمنين .

وقد رأينا على اللوحة البيضاء من حاولوا تمثيل صلاح الدين الأيوبى فلم يفلحوا .

فهل تراهم يفلحون فى تمثيل ذلك الرجل الذى لا نظير له بين الرجال ؟ .

لا نخالهم يفلحون ، ولا ضير عندنا من تمثيل أناس من عظماء الإسلام فى مقام الدعوة والتكريم ، فأما الشخصيات المقدسة التى تعلو على ذلك كثيراً فالإشارة إليها من بعيد أوفق للفن وللمقام ، ومن ظن غير ذلك فليحاول ماشاء على سبيل التجربة فى موقف أو موقفين ، ثم لينظر ماذا يرى من ظنونه بعد ذاك .



## محاكمة الخديو عباس *

قرأت اليوم «محاكمة الخديو عباس» منقولة من الأوراق التى احتفظ بها سعد زغلول وبقيت محفوظة إلى الآن .

وتساءلت أخبار اليوم : ترى لماذا احتفظ بها سعد ولم يكن وزيراً فى أثناء نظر القضية؟

ومن وفاء حق التاريخ أن نسجل هنا ما نعلمه عن هذه القضية التى كان لها شأن خطير فى تاريخ مصر الحديث ، أوشك بعضنا أن ينساه .

إن سعدا احتفظ بتلك الأوراق ، لأن حساب دائرة سيف الدين ودائرة صالحة هانم التى حذف اسمها من الأسرة الخديوية - كان سبب استقالته من وزارة الحقانية ، وهى الاستقالة التى تذكر بين أشرف الذكريات فى تاريخ الوزارات المصرية وغيرها من الوزارات .

إن لورد كتشنر يظهر أخيراً بمظهر الحارس الغيور على نزاهة الحكم مع أنه كان يتعرض لها من مبدأ الأمر لحماية صاحبه حسين محرم باشا وشفاء حزازته من الخديو عباس .

وقد كان سعد وزيراً للحقانية حين راجع أعمال المجالس الحسبية فلاحظ فى أوراق الدائرتين كثيراً من الخلل وسوء التصرف ، وأراد أن يحيل الوصى حسين محرم إلى القضاء فوقف له لورد كتشنر وطالبه بتقديم الأدلة على الخلل قبل اتخاذ إجراءات المحاكمة أى طالبه بوضع المركبة أمام الحصان كما قال له سعد . لأن حجز أوراق الدائرة جميعاً أول عمل من أعمال الإثبات .

وأبى ضمير سعد أن يسكت على الخلل الواضح أمام عينيه فاستقال بعد مقابلة عاصفة بينه وبين اللورد الحاكم بأمره ، وقالت دائرة المعارف البريطانية وهى تروى القصة : «إن أدلة إدانة زغلول لم تكن كافية ولكنها كما وقر فى الأذهان كانت صحيحة فى جملتها» .

أما حماسة كتشنر للدفاع عن حسين محرم باشا فسرها معروف عند الكثيرين ، وبعض ما يقال عنه إنه كان يدير له رحلات الصيد على اختلافه ويصحبه فى تلك الرحلات . . .

ولا نعلم بين مفاخر النزاهة واستقلال الرأى مفخرة أعظم من مفخرة الرجل الذى يناضل سلطة العرش وسلطة الاحتلال دفاعاً عن حقوق لا يدرى بها أصحابها فى خارج القطر ، ولا يملكون المطالبة بها لو علموا بتلك الحقوق .

* الأخبار : ١٩٥٥/١٢/١٢ .

«إننى بمجرد قراءتى لتلك القصة قامت بعقلى شبهات ، ولاحظت فى الوقائع المسرودة تناقضات أنهيتها فى خطاب إلى الأستاذ مصطفى أمين ثم قرأت تعقيبكم فاسترحت خصوصاً حين قررتم أن محرم باشا كان صديق كتشنر فقد كان بين ملاحظاتى على القضية صعوبة التوفيق بين القول بأن الخديو أراد إرضاء كتشنر بتقديم محرم للمحاكمة كبشاً للفداء ، وبين ما أثبته حكم البراءة - أن محرما هذا كان قد شكا إلى كتشنر تصرفات الخديو . فإن المعنى الخالص من هذا أن محرما ذو علاقة باللورد . . ولكننى لا أكتب هذه السطور لمجرد الشك إنما حفزنى إلى كتابتها رغبتى أن تتفضلوا بزيادة القضية إيضاحاً وأن تفردوا لها فصلا خاصاً يجلو على الناس هذه الصفحة الوضيئة من صفحات سعد وينفى من نفوسهم هذا الوهم الضار أعنى غيرة المحتلين على العدالة ونزاهة الحكم» .

## نزاهة غير نزيهة

والأستاذ الزيات على حق فى ملاحظاته وفيما استزاده من البيان عن دعوى الاحتلال . لأن الواقع المستفاد من جميع القضايا الكبرى التى تعرض لها قياصرة الاحتلال باسم نزاهة الحكم - أن هذه النزاهة لم تكن نزيهة على الإطلاق وإنما كانت سبيلا للدعاية أو لتغطية الحقيقة التى تمسه وتمس أولئك القياصرة ، وقد كان أنزه هؤلاء القياصرة - من الناحية المالية - لورد كرومر الذى قضى فى الوكالة البريطانية نحو ربع قرن لم يكن له فيها دعوى غير النزاهة والتنزيه فيما يدور حول العدالة والمساواة ، ولكنه لم يكن يعرف عدالة ولا مساواة حين تقضى الدعاية المغرضة قضاءها عليه فى أظهر الأمور .

ومن قبيل ذلك أنه قام وقعد لاتهام «المنشاوى باشا» بضرب بعض اللصوص الذين سرقوا ماشية الخديو عباس فى جواره ولم يسترح حتى صدر الحكم بحبس



# من تاريخ عباس وكتشنر *

نشرت «أخبار اليوم» بياناً عن القضية التى نظرت فى أوائل أيام الحرب العالمية الأولى وسميت يومئذ بمحاكمة «الخديو عباس الثانى» لأنها كشفت عن خلل فى حساب دائرة سيف الدين ودائرة صالحة هانم منسوب إلى الوصى عليها «حسين محرم باشا» ثم قيل إن لورد كتشنر هو الذى أمر بالتحقيق والمحاكمة إظهاراً للغيرة «الاحتلالية» على نزاهة الحكم والإدارة .

وقد اقتبست «أخبار اليوم» بيانها الذى نشرته من أوراق مودعة بين محفوظات الزعيم الخالد «سعد زغلول» وتساءلت :

لماذا يا ترى عنى سعد بحفظ هذه الأوراق مع أنه لم يكن وزيراً فى أثناء المحاكمة ؟ .

وكنا نعلم شيئاً عن هذه القضية ، سمعنا بعضه من سعد وسمعنا بعضه الآخر من المعاصرين الثقات ، فكتبنا موجزاً مما نعلمه وقلنا إن سعداً قد احتفظ بالأوراق لأن هذه القضية كانت سبب استقالته المشرفة من وزارة الحقانية ، بعد اصطدامه بالخديو عباس وباللورد كتشنر معاً أثناء التحقيقات الأولية التى أجراها على أثر مراجعاته لأعمال الدوائر والمجالس الحسبية .

## سؤال مؤرخ قانونى

وصديقنا الفاضل الأستاذ «عبده حسن الزيات» المحامى مؤرخ وقانونى ، يعنيه تاريخ سعد زغلول خاصة فى القضاء لأنه كتب عن قضاياه التى نظرها كتاباً